جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY MUSEUM
متحف جامعة بيرزيت

مجموعة توفيق كنعان

الموارد / منشورات عن توفيق كنعان

المصـــدر: خالد الناشـــف، "توفيق كنعان: تقويم جديد"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، ع. 50 (ربيع 2022: 69-91).

خالد الناشف *

توفيق كنعان: تقويم جديد

تمهيد

نشر الطبيب توفيق كنعان سنة ١٩١٤، وكان في عامه الثاني والثلاثين، كتابه الأول "المعتقدات الغيبية والطب الشعبي في أرض الكتاب المقدس."[١] والكتاب بالألمانية، نشرته في هامبورغ إحدى أهم دور النشر الألمانية المتخصصة بالدراسات الشرقية. وكان كنعان، في الأعوام السابقة لنشر هذا الكتاب، وبعد تخرجه طبيباً سنة ١٩٠٥، يعمل بدأب على تأهيل نفسه كطبيب في تخصصات طبية متنوعة، وخصوصاً بأمراض المناطق الحارة، إضافة إلى تبوئه مناصب طبية وإدارية في عدد من مستشفيات القدس وعياداتها.

كل هذا لم يمنع كنعان من التصدي لموضوع الفولكلور الفلسطيني فيؤلف "المعتقدات الغيبية..."، وينشر قبل ذلك مقالين هما: "التقويم عند الفلاحين الفلسطينيين" (١٩١٣)، و"الزراعة في فلسطين" (١٩٠٩). والمقال الأخير جغرافي المنحى، وهو الأول من إنتاج كنعان في مجال غير الطب؛ وبذلك يخرج عن إطار اهتمامَيْ كنعان الرئيسيين، الطب والفولكلور. وبعد هذه الدراسة، أنتج العلامة الموسوعي كنعان ما يزيد على ٥٠ مقالاً، متفاوتة الحجوم، بالإنكليزية والألمانية، معظمها في الفولكلور الفلسطيني، وخصوصاً في المعتقدات الغيبية. وإلى جانب ذلك، ترك كنعان لنا أكثر من ٣٧ دراسة طبية في مجال تخصصه بأمراض المناطق الحارة وعلم الجراثيم، ولا سيما الملاريا، وفي موضوعات أُخرى، كالجذام والسل والصحة في فلسطين. وفي سنة ١٩٣٢ أُدرج اسمه، مع نبذة عن حياته، في كتاب صدر في ألمانيا بعنوان "مشاهير أطباء أمراض المناطق الحارة" للأستاذ الجامعي الدكتور غ. أولب، الذي كان مديراً للمركز المعروف لطب أمراض المناطق الحارة في مدينة توبنغن.[٢] وأخيراً، أنتج كتابين عن القضية الفلسطينية يعكسان انخراطه في مجابهة الاستعمارين البريطاني والصهيوني، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله من قبل السلطات البريطانية سنة ١٩٣٩.

السِيَر السابقة

واكب توفيق كنعان محطات المأساة الفلسطينية منذ البداية، وكان له دور نشيط في مجابهة الصهيونية والاستعمار البريطاني. وبحكم مركزه كأحد الأطباء المميزين في القدس قبل سنة ١٩٤٨،

(*) مدير معهد الآثار في جامعة بير زيت (فلسطين)، وأستاذ الآثار في الجامعة.

أو بعد ذلك كمدير لمستشفى أوغستا فيكتوريا (المطّلع)، كان يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع الفلسطيني، والمقدسي بصورة خاصة. لهذا يفاجأ المرء عندما يجد أن سِيَر حياة كنعان[٣] قد جاءت مقتضبة، وفي كثير من الأحيان سطحية. وقبل سنة ١٩٩٨، اعتمدت السير على مقالين، الأول ليعقوب العودات سنة ١٩٧١، والثاني ليَسمى، ابنة كنعان، سنة ١٩٨١، نشر في مجلة "التراث والمجتمع" (البيرة).[٤] إن المقابلة بين المقالين تكشف عن وجود تطابق في عدد من المعلومات. وبما أنه لا يعقل أن تكون يسمى، الابنة، استمدت معلوماتها من مقال العودات، فيرجح الافتراض أن الأخير اعتمد في سيرته على مقال ليسمى نُشر في وقت ما بين سنة ١٩٦٤، تاريخ وفاة كنعان، وسنة ١٩٧١. وعلى الأغلب أن مقال يسمى، المنشور سنة ١٩٨١، هو نسخة معدلة قليلاً عن ذلك المصدر الأقدم. وإن صح هذا الافتراض، فإن ذلك يتركنا بمصدر واحد فقط، هو أيضاً بحاجة إلى تدقيق، باستثناء النعي الذي وضعه المطران داود حداد سنة ١٩٦٤، ولم يستفد منه أحد. ولم يستفد كاتبو هذه السير مما كتبه كنعان بنفسه،[٥] أو من المصادر الألمانية.[٦] ولم تحظ بالاهتمام الإشارات إلى توفيق كنعان في مراجع تقع خارج إطار الطب والفولكلور؛ وهذا متوقع وجوده بالنسبة إلى كنعان، الذي كان على اتصال بجميع فئات الشعب طوال أكثر من نصف قرن. وقد تحسن الوضع نوعاً ما في المساهمات التي احتواها "كاتالوغ" نشر بالعربية والإنكليزية بمناسبة معرض "يا كافي، يا شافي... مجموعة توفيق كنعان للحجب الفلسطينية"،[٧] الذي نظمته جامعة بير زيت في نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨. غير أن هذا "الكاتالوغ" بقي محدود التوزيع والانتشار، بالإضافة إلى أن بعض المعلومات فيه اتصف بالاقتضاب ويحتاج إلى تعديل. لهذا ترمي هذه الدراسة إلى تقديم عرض جديد ومتكامل لسيرة توفيق كنعان، يعتمد لا على المعلومات المباشرة المذكورة في المصادر فحسب، بل أيضاً على الاستنتاج من مجموعة من الإشارات، التي تبدو ثانوية، الأمر الذي يساهم في ملء بعض الثغرات، وإيضاح بعض ما غمض في السير السابقة.[٨]

العائلة

تعود جذور عائلة كنعان إلى لبنان، وبالتحديد كفر شيما، جنوبي بيروت، وهي مسقط رأس الجد، الذي أجبرته أحداث الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٨٦٠ على النزوح إلى فلسطين ليستقر بيافا.[٩] وكانت العائلة تضم ثلاثة صبيان وبنتين، نعرف منهم أنطون وبشارة، والأخير هو والد توفيق كنعان. وقد وضع الجد ابنيه أنطون وبشارة في دار الأيتام السورية في القدس، أو ما يعرف باسم "مدرسة شنلر"، التي أُسست في السنة نفسها، بينما بقي الابن الأكبر والبنتان في يافا. وكان عمر بشارة عندما التحق بمدرسة شنلر ١٢ عاماً، وتعلم في البداية مهنة الخياطة، غير أن يوهان لودفيغ شنلر[١٠] قام بتدريبه على التعليم ليحصل على شهادة معلم ويمارس التدريس في المدرسة نفسها عدة أعوام. وكُلّف بشارة رعاية فرع "جمعية القدس" التبشيرية الألمانية، الذي كان أُسس هناك من قبل سنة ١٨٦٥.[١١] وكان بشارة على علاقة صداقة جيدة بالمسؤولَيْن عن إدارة فرع "جمعية القدس" في بيت لحم، ساموبل مولير ولودفيغ شنلّر،[١٢] على التوالي، والأخير هو الابن الثاني ليوهان لودفيغ. واستقر بشارة ببيت جالا ليصبح مدير المدرسة، التي أُسست للبنين، وبعد فترة وجيزة أيضاً للبنات، وأصبحت فيما بعد، بشهادة كنعان نفسه، أهم مدرسة في منطقة بيت لحم. وفي سنة ١٨٩١ رُسم بشارة قسيساً للطائفة، فكان بذلك أول قس عربي تخرّج من الإرسالية الفلسطينية، وأول قس لوثري عربي في الشرق الأوسط. وقد قام ببناء مدرسة، وقاعة للصلاة والاجتماعات العامة.

زوجة بشارة، كاترينا خير الله،[١٣] هي أيضاً من أصل لبناني. وقد تيتمت كاترينا وهي طفلة صغيرة لتلحق بميتم البنات التابع لدار شمّاسات كايزرزفيرت[١٤] صوغر في بيروت.[١٥] وبعد

الانتهاء من تدريبها كشمّاسة، حضرت إلى القدس كممرضة تحت التدريب في مستشفى الشمّاسات أنفسهن، أو ما يعرف باسم المستشفى الألماني، حيث تعرّف إليها بشارة. شاركت كاترينا زوجها في أعماله التبشيرية، بإنشاء مدرسة للخياطة والتطريز في بيت جالا، وبتأسيس جمعية للنساء كانت تجتمع مرة في الأسبوع في بيت العائلة.

رزقت العائلة ستة أولاد، أربعة صبيان وبنتان، نعرف منهم ليديا وتوفيق وبدرة وحنا، الذي كان يصغر توفيق بسبعة أعوام. وقد تخصص حنا بالهندسة الميكانيكية وتفوق في هذا المجال؛ وهو ما حدا مصانع فويت للتوربينات في ألمانيا (هايدنهايم) على تعيينه رئيساً لمرافقها التي كانت تضم آنذاك ما يربو على عشرة آلاف من العمال والموظفين. ومثل أخيه، كتب عدة مقالات في مجال اختصاصه، ومنحته مدينة شتوتغارت شهادة الدكتوراه في الهندسة. ولا نعرف الكثير عن أخيه الآخر، الذي تخرج في إدارة الأعمال والبنوك. أمّا بدرة، فإلى جانب نشاطها الاجتماعي والسياسي في العشرينات والثلاثينات، فقد شاركت أخاها اهتمامه بالفولكلور الفلسطيني، كما يظهر من مقالها عن "الميرمية"،[١٦] وكتبت مقالات وعظية في مجلة "في الأرض المقدسة"، التي كانت تصدرها الكنيسة الإنجيلية الألمانية.[١٧]

الطفولة والشباب

ولد توفيق كنعان في بيت جالا في ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٨٨٢، وكان ترتيبه في العائلة الثاني بعد ليديا. وبعد الابتدائية في بيت جالا، التحق توفيق، مثل أبيه، بمدرسة شنلّر لينهي دراسته الثانوية من قسم المعلمين فيها.[١٨] في بداية سنة ١٨٩٩ ذهب إلى بيروت لدراسة الطب في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت، حالياً). وبعد شهر ونصف شهر فقط من وصوله إلى بيروت،[١٩] توفي أبوه في شباط/فبراير في إثر التهاب في الصدر، الأمر الذي جعل وضع الطالب صعباً للغاية. وكانت العائلة فقيرة تعيش على مرتب ليديا، التي كانت تعمل معلمة، والأم تتلقى راتباً تقاعدياً لزوجها المتوفى، فأخذ توفيق يعطي دروساً خصوصية ويقوم بأعمال أُخرى في الجامعة ليتمكن من إتمام دراسته.

لا شك في أن بشارة ترك أثراً قوياً في ابنه، وإن كنا لا نعرف مدى تأثير أمه فيه. يقول توفيق عن أبيه: "كنا نذهب مع أبي في رحلات قصيرة وطويلة في أرجاء البلاد للتعرف على البلد والناس، وهذا الاتصال المستمر مع الناس غذى فينا جميعاً، وفيّ أنا بشكل خاص، الحب للناس والوطن واستمر معي حتى اليوم هذا الشعور بالانتماء بولاء لا يتزعزع." وربما في هذه الرحلات ما يفسر معرفته العميقة بالمجال الطبيعي في وطنه، انعكس لاحقاً في كتاباته، كمقاله عن "تراث النباتات في المعتقدات الغيبية الفلسطينية"، الذي نشر سنة ١٩٢٨. وكان الإيمان والتعليم من الأساسيات في بيت القس بشارة، إذ أكمل ثلاثة من أبنائه الستة تعليمهم العالي في أثناء حياة الأب، كما بقي تأثير العائلة والنشأة الأولى قوياً فيهم طوال حياتهم، ولم يتخلوا عن العائلة والوطن قط. يقول توفيق: "في كل مراحل حياتنا، نحن الأولاد، كنا نحمل إحساساً قوياً ببركة بيت العائلة."

تخرج[٢٠] توفيق كنعان من القسم الطبي سنة ١٩٠٥ بمرتبة الشرف، وألقى في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة التخرج في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٠٥، خطبة التخرج وكانت بعنوان "المعالجة الحديثة". وقد نشرت هذه الخطبة في مجلة "المقتطف"،[٢١] فكانت على ما يبدو أول مقال ينشر لكنعان، وفيها يتطرق الطبيب الشاب إلى أساليب المعالجة الحديثة، كالأمصال وأعضاء الحيوان والأشعة.

في مستهل الحياة المهنية

تزايد العمل في المستشفى الألماني في القدس سنة ١٩٠٤، واقتضت الضرورة تعيين طبيب

مساعد، وكان هذا الطبيب توفيق كنعان، الذي تم الاتفاق معه قبل تخرجه.[٢٢] فتسلم وظيفته في صيف سنة ١٩٠٥،[٢٣] ليعمل تحت إدارة د. غروسندورف، الذي كان جراحاً لامعاً ومديراً للمستشفى. يقول كنعان عن هذه الفترة من حياته: "في العام ١٩٠٥ ابتدأ عملي كطبيب مساعد في مستشفى الشمّاسات الألمانيات. كان مدير المستشفى د. غروسندورف جراحاً ماهراً تعلمت تحت إشرافه الكثير؛ وحتى أحصّل أكثر ما يمكن من المعرفة العلمية عملت يومياً لمدة تسع ساعات على الأقل، ولهذا لم أتمكن في هذه الفترة من تأسيس عيادة خاصة، وعندما أقلت من المستشفى لإفساح المجال أمام طبيب ألماني للعمل مكاني كنت خالي الوفاض تقريباً."[٢٤] في سنة ١٩٠٦، عندما ذهب غروسندورف مع بعض الشمّاسات في إجازة، تولى كنعان الإدارة الطبية للمستشفى مع د. أدولف أينسلر كطبيب مناوب. وكان أينسلر، الهنغاري الأصل، مديراً لمستشفى بيكور حوليم في فترة مبكرة، وظل حتى وفاته في سنة ١٩١٩ مديراً لمستشفى الجذام.

بعد تعيين كنعان في المستشفى الألماني، ازداد استيعاب المستشفى للمرضى من ٥٧٤٩ إلى ١١,١١٠ مرضى. ونظراً إلى ندرة الأطباء في القدس في بداية القرن العشرين، فقد جرت العادة أن يستعين الأطباء بزملاء لهم للقيام بأعباء محددة، وتمثيلهم، أو إدارة سير العمل في أثناء التغيب عن المستشفى لطارئ ما. ففي سنة ١٩٠٦ استعان مستشفى شعاريه تسيدك (المستشفى الألماني اليهودي) بكنعان ليحل كمسؤول إداري على الأغلب محل غروسندورف،[٢٥] الذي غادر إلى ألمانيا لفترة ثمانية أشهر. وكان مدير المستشفى حينذاك أبراهام فالاخ، الذي كان تلك السنة في رحلة إلى ألمانيا ليقوم بدعاية للمستشفى المؤسس حديثاً.[٢٦] وتذكر يسمى كنعان أن أباها عمل في "المستشفى الإنكليزي"، التابع لـ "جمعية يهود لندن"[٢٧] الأنكليكانية للتبشير بين أوساط اليهود،[٢٨] لفترتين كل فترة طولها ٦ أشهر. وإن كانت يسمى لا تذكر طبيعة عمل أبيها في المستشفى الإنكليزي، أو تاريخه، إلاّ إن وراء هذا المستشفى كانت تقف جمعية تبشيرية تشكلت أصلاً بناء على اتفاقية مشتركة بين بروسيا وإنكلترا، وتمخضت عن "مطرانية القدس الإنكليزية البروسية المشتركة" سنة ١٨٤١. وقد تعاقب على رئاسة المطرانية مطران ألماني ومطران إنكليزي حتى سنة ١٨٨٦، تاريخ انسحاب بروسيا من الاتفاقية.[٢٩] وتبوأ هذا المركز بعد ميخائيل سلومون ألكسندر، المطران الأول للمطرانية المشتركة، ساموبل غوبات، الذي اقترنت حفيدته بمدير المستشفى الإنكليزي د. غورني ماستيرمان،[٣٠] الذي كان يهب لمساعدة الطائفة الألمانية في الأزمات، كما فعل عام ١٩٣٩/ ١٩٤٠ عندما ترأس المستشفى الألماني بعد أن رحل د. غميلين، مدير المستشفى، الذي سنعود إليه فيما بعد، إلى ألمانيا في إثر اندلاع الحرب العالمية الثانية. فلا عجب أن يقوم كنعان من حين إلى آخر بالعمل في المستشفى الإنكليزي، الذي ازداد استيعابه للمرضى منذ سنة ١٩٠٢ حتى سنة ١٩١٢ ازدياداً ملحوظاً.

كنعان الباحث:

البدايات

في سنة ١٩٠٩ نُشر أول مقال مطول لكنعان في المجلة الجغرافية الألمانية "غلوبوس". وما يلفت النظر في هذا المقال أنه لم يكن قط في مجال الفولكلور الفلسطيني، وإنما عن "الزراعة في فلسطين"، وأنه ترجمة من العربية إلى الألمانية لمحاضرة ألقاها كنعان بتاريخ ٢٢ أيار/مايو ١٩٠٩، ولم تُذكر للأسف مناسبة إلقائها. غير أن ذلك يعطينا فكرة عن الجو الفكري السياسي السائد في فلسطين عشية انهيار الإمبراطورية العثمانية، ويضيف إلى الصورة الناقصة والمبهمة لتلك الفترة. وتتلخص الفكرة الأساسية للمقال في أن فلسطين (ويقصد بها كنعان غربي نهر الأردن وشرقيه، وتضم الجولان وعجلون وحوران والبلقاء) كانت

تاريخياً مستغلة زراعياً بشكل أفضل من الفترات الحديثة، التي شهدت تدهوراً في الزراعة وإهمالاً لها ابتداء من الفترة الأيوبية، وخصوصاً في إبان الفترة العثمانية. ومن الواضح لدى قراءة مقال "الزراعة في فلسطين" أن كنعان، ومعه على الأغلب جمهور المحاضرة الأصلية، كان يؤرقه تردي أوضاع الفلاحين بعد قرون من الاستغلال والظلم، وهو ما أدى إلى خراب الأرض الزراعية والحقول (السلاسل)، بينما تؤكد المعطيات خصوبة الأرض وفسح المجال لاستغلالها بشكل أفضل كثيراً فيما لو استخدمت الوسائل الحديثة ومن منظور اقتصادي شامل. ويلاحظ أن المقارنة بتجارب أُجريت في فلسطين كانت وراء تطوير أفكار كنعان في هذا الشأن، وخصوصاً المستعمرات الألمانية، التي استحوذت على إعجاب كنعان،[٣١] ويطلب كنعان من الفلسطينيين أن يحذوا حذوها، وعلى الأغلب المستعمرات اليهودية، التي يقف كنعان منها موقفاً سلبياً، عندما يصفها بأنها "تعتمد كلية على تبرعات الأثرياء من اليهود."[٣٢]

وعلى الرغم من أي انتقادات يمكن توجيهها إلى هذا المقال، ولا سيما انتقائية كنعان المحكومة بمستوى معارف عصره وخلفيته الدينية، فإن لا مناص من النظر إلى هذا المقال كمرجع أساسي في موضوع تطور الزراعة في فلسطين وتشخيص وضعها. ويبرز كنعان، في أول مقال له يخرج عن إطار الطب، كباحث ضليع في ميدان ما يسمى "الدراسات الشرقية". إذ بالإضافة إلى الأسماء المألوفة في عصره، من أمثال شوماخر وباور وغوته وبورخارت، وغيرهم، نجده يستشهد بالمصادر الكلاسيكية مثل سترابو أو يوسيبيوس، أو العربية مثل مجير الدين. ويتجلى في المقال الاهتمام الذي يبديه كنعان بمستقبل بلده، وهو ما قد يفسر الدافع وراء دراسة أوضاع الفلاحين، وهم كانوا يشكلون آنذاك القوة الإنتاجية في فلسطين. وربما كان الاهتمام الموجه إلى الفلاحين هو ما حوّل أنظار كنعان إلى المعتقدات الغيبية السائدة بين الفلاحين، وبالتحديد استخدام الحجب. ويمكن النظر إلى هذه الظاهرة كتعبير عن التخلف والجهل، ومقاومة هذه الظاهرة تبدأ بتحليلها ومعرفة أسبابها.

الكتاب المقدس

يشكل الكتاب المقدس، وخصوصاً العهد القديم، أحد المصادر الأساسية، التي يعتمد عليها توفيق كنعان في مجال مقارنة الزراعة اليوم بالأمس. وسيبقى هذا الاهتمام ثابتاً في كتاباته الفولكلورية، إن كان ذلك من أجل تفسير الظاهرة الفولكلورية نفسها، أو لإلقاء الضوء على شواهد غامضة من الكتاب المقدس. وكانت دراسات العهد القديم، الذي يعتبر جزءاً من التراث المسيحي، قد بلغت أوجها في عصر كنعان، الذي كانت له علاقات شخصية، في فترات متعاقبة، برموز هذه الدراسات من أمثال غوستاف دالمان وألبرخت ألت ومارتن نوت. إن الأعوام الأربعة التي تفصل بين سنة التخرج وتاريخ نشر المقال الأول، هي الفترة التي استوعب فيها كنعان ما وصلت إليه علوم الكتاب المقدس، والعهد القديم بصورة خاصة، والعلوم المرتبطة به. ولا يمكن تفسير تركيز كنعان على الكتاب المقدس بخلفيته الدينية فقط. وبالإضافة إلى ذلك، ليس من السهل إدراك كيف حدث ذلك إلى جانب قيام كنعان بمهنته كطبيب، التي تطلبت منه في البداية، كما يقول، "قضاء تسع ساعات يومياً" من العمل الطبي الجاد والمنهك، حتى لو افترضنا أن دالمان، الذي ترأس "المعهد الألماني الإنجيلي" ابتداء من سنة ١٩٠٣، قد أثر في كنعان، ولا سيما أن الاثنين تشاركا الطرح القائل إنه لا يمكن فهم العهد القديم من دون دراسة الفولكلور الفلسطيني.

التخصص

في صيف سنة ١٩١٠ أصبح توفيق كنعان الطبيب المسؤول عن عيادة تابعة لبلدية القدس. ولا يُعرف إلى متى بقي يعمل في هذه العيادة التي يبدو

أنها دمجت سنة ١٩١٢ في مستشفى بلدي أُسس في منطقة الشيخ بدر.[٣٣] وفي فترة ١٩٠٦ ـ ١٩١٠ كان كنعان يعمل في مجال علم الجراثيم والفحص المجهري قبل تخصصه بهذه الموضوعات في ألمانيا، كما هو واضح من أول مقال طبي أساسي له نشر سنة ١٩١١ في مجلة الكلية (بيروت) عن "مرض التهاب السحايا في القدس"، مشيراً فيه إلى فحوص مجهرية كان يقوم بها مع د. فالاخ، مدير مستشفى شعاريه تسيدك، بالإضافة إلى أن الأخير أمده بالإحصاءات اللازمة من المستشفى.[٣٤]

وفي سنتي ١٩١٢ و١٩١٣ ولفترة أربعة أشهر من سنة ١٩١٤، تخصص كنعان بأمراض المناطق الحارة وعلم الجراثيم في ألمانيا تحت إشراف الأساتذة مولينس وروجه وموخ وهنتيمولر. وعلى الأغلب أن أستاذه في أمراض المناطق الحارة هو الأستاذ ب. مولينس، كبير أطباء البحرية في معهد لأمراض السفن والمناطق الحارة في هامبورغ. وكان مولينس يعتبر أحد الأساتذة الكبار في مجال أمراض المناطق الحارة، وخصوصاً الملاريا، وأسس "مكتب الصحة العالمي"[٣٥] وترأسه. ويقارن كنعان هذا المكتب بمعهد باستور الفرنسي.[٣٦] وفي هذا الإطار، أشرف مولينس على بعثة الملاريا الشهيرة إلى القدس، ووضع تقريراً عن ذلك تضمن وصفاً دقيقاً للأوضاع الصحية في القدس عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى. وبحسب ليلى منطورة، ابنة كنعان، فقد كان مساعداً لمولينس في هذه البعثة.[٣٧] ويستنتج من ذلك أن كنعان تخصص بطب المناطق الحارة في هامبورغ، وربما في أثناء وجوده هناك اتصل بدار "ل. فريدريكسن"، المتخصصة بنشر دراسات عن العالم الثالث، لتقوم بنشر كتابه "المعتقدات الغيبية...". أمّا هانس موخ[٣٨] فقد درس كنعان عليه مرض السل، وهذا الأخير قام أيضاً ببعثة دراسية إلى فلسطين بشأن السل، ربما شارك فيها كنعان قبل سنة ١٩١٣، وهو تاريخ نشر دراسة مطولة عرضت فيها نتائج بعثة موخ، وشارك كنعان فيها بثلاث مساهمات.[٣٩]

الفولكلور الفلسطيني

في سنة ١٩١٣، نشرت "مجلة جمعية فلسطين الألمانية"[٤٠] مقال توفيق كنعان المعنون "التقويم عند الفلاحين الفلسطينيين"، وهو باكورة إنتاجه في مجال الفولكلور الفلسطيني. وفي سنة ١٩١٤ صدر "المعتقدات الغيبية..."، وهو أول كتاب له في هذا الموضوع. وعلى مدى السنوات الثلاث عشرة التالية، ارتفعت وتيرة عطاء كنعان بنشر عدد من المقالات في "مجلة جمعية فلسطين الشرقية"، التي أسسها سنة ١٩٢٠ عالم الدراسات الأشورية الأميركي ألبرت ت. كلاي، وقد اختير كنعان ليكون عضواً فيها إلى جانب المحامي عمر الصالح البرغوثي وأسطفان حنا أسطفان،[٤١] أمين متحف الآثار الفلسطيني في القدس، وأصبح فيما بعد خازن الجمعية وأمين سرها، وكان أحياناً يترأسها.[٤٢] ومما يذكر أن كنعان كان عضواً في "المدارس الأميركية للأبحاث الشرقية"، التي أسست سنة ١٩٠٠ وترأس مقرها الرئيسي في القدس منذ سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٢٩، عالم الآثار الأميركي ويليام فوكسويل ألبرايت.[٤٣] وفي مقالاته، التي ابتدأ بنشرها في هذه الفترة، يظهر اهتمامه الخاص بجانب المعتقدات الغيبية في هذا الفولكلور: "الينابيع المسكونة وجن المياه في فلسطين" (١٩٢٠/١٩٢١)؛ "طاسة الرجفة" (١٩٢٣)؛ "الأولياء والمقامات في فلسطين" (١٩٢٤ ـ ١٩٢٧)؛[٤٤] "تراث النباتات في المعتقدات الغيبية في فلسطين" (١٩٢٨)، وغيرها.

المعتقدات الشعبية

يلاحظ بالنسبة إلى فكر كنعان أن الإطار العام له هو الاهتمام بالمعتقدات الشعبية، إن صح التعبير، أي مجموعة المعتقدات الروحية المرتبطة بالممارسات اليومية، وبصورة رئيسية عند الفلاحين، وليس هذه الممارسات نفسها، كما تمثل ذلك في اهتمامات بحّاثة آخرين، كباور ودالمان وغرانكفيست. ويركز كنعان تركيزاً خاصاً على

المعتقدات الغيبية عند الفلاحين والطبقات الدنيا في المدن. وللمعتقدات الشعبية علاقة بمخزون تراثي من فترات متعددة، بعضها يسبق التوحيد، وترتبط بشكل من الأشكال بالسحر. وأصبح عمل "الأولياء والمقامات في فلسطين"، الذي نُشر بشكل مستقل، أحد الأعمال الكلاسيكية في ميدان الفولكلور الفلسطيني،[٤٥] فظاهرة المقامات هي التعبير المادي (المقام) عن المعتقدات الشعبية، ولهذا فهي أفضل معطيات لدراسة نظم فكرية كما طورها الإنسان الفلسطيني المنتج، الممثل بالفلاحين. فبعكس ظاهرة التوحيد، التي تطورت في المدن، واستوعبتها السلطة الحاكمة واستغلتها على مدى العصور، فإن النظم الروحية المرتبطة بالمقامات هي ارتداد لوضع سابق أو إعادة إنتاج له، بما يشمل الوعي التاريخي، الذي يعبر عنه بالمقام وصاحبه، ويقابل ذلك التاريخ المدون، الذي تنتجه حضارة المدن. فمقام الشيخ القطرواني في قرية عطارة، شمالي رام الله، هو تجسيد لشخصية سابقة، هي القديسة كاترينا، التي نذرت لها كنيسة في محيط المقام (المثال من عند كنعان). وقد تحولت القديسة، بحسب الرواية الشعبية، إلى وليّ جاء طائراً من مكان بعيد (غزة) ليحط في عطارة، في محاولة لاستيعاب شخصية دينية مسيحية ضمن منظومة الإسلام.

عالم الجن

إن كانت مقامات الأولياء هي التعبير المادي عن المعتقدات الشعبية وأماكن طقوسها وما يمنح القرى الحماية والبركة، فإن القوى الخارقة للطبيعة موجودة في كل مكان وتؤثر في مجرى الحياة، وتسبب السعد أو النحس، وبصورة خاصة الأمراض. هذا هو موضوع كتاب كنعان "معتقدات الجن في أرض الكتاب المقدس" (١٩٢٩). وهو الكتاب الثاني، الذي نشر منذ البداية بصورة مستقلة. ويتطرق كنعان في الكتاب إلى حياة الجن وأسمائها، ومجالات تأثيرها. ويحمل بالنسبة إلى الجن النظرة التقليدية، أي أنها كانت أصلاً آلهة ضمن نظام تعدد الآلهة، أو في إطار ما يسميه كنعان "الأديان البدائية"، الذي سبق التوحيد، ومع الإيمان بالإله الواحد تدنت مكانتها إلى منزلة الجن، الطيبة والشريرة منها. وقد جمع كنعان في كتابه كل ما يتعلق بالجن بحسب المعتقدات الشعبية الفلسطينية مفصلاً غذاءها ولباسها وكيفية ظهورها وأماكن سكنها (الأرواح الأرضية والأرواح الجهنمية)، كشجرة الخروب. ويدرج كنعان مجموعة كبيرة من أسماء الجن وطبقاتها، ويلاحظ أن أسماء بعض الأمراض تعود إلى أسماء جن طواها النسيان، كالخانوق (الدفتيريا)، والريح الأصفر (الكوليرا)، والطاعون (ص ٢٨).

المعتقدات الغيبية

لا يعرف متى بدأ اهتمام توفيق كنعان بالمعتقدات الغيبية من دون غيرها من مكونات الفولكلور الفلسطيني. وأول مقال له في هذا المجال هو "الجن كمسبب للمرض في الطب الشعبي"، الذي نشر سنة ١٩١٢ في مجلة الكلية البيروتية، وهو ترجمة عن الألمانية إلى الإنكليزية لجزء من كتاب "المعتقدات الغيبية..."، الذي سيتم نشره لاحقاً سنة ١٩١٤.[٤٦] ولهذا ستكون نقطة الانطلاق لتقصي خصوصية فكر كنعان تاريخ سنة ١٩١٢ مع التركيز على كتاب "المعتقدات الغيبية..."، لا على مقال كنعان "التقويم عند الفلاحين الفلسطينيين"، الذي نشر سنة ١٩١٣.

لا بد من القول إنه لم يكن في الإمكان إنجاز بحث "المعتقدات الغيبية..." من دون عملية بحث طويلة، ربما امتدت أعواماً، يتخللها جمعاً كثيفاً للحجب. ففي المقال الذي نشره كنعان سنة ١٩١٢، يقول: "لقد عكفت العام الفائت على دراسة موضوع (الطب الشعبي الفلسطيني) وجمعت مجموعة كبيرة من الحجب التي كانت تستعمل للعلاج والوقاية. وبالتأكيد لا يكفي امتلاك هذه المجموعة لمعرفة على ماذا تدل كل قطعة. ولهذا شرعت بالبحث عن

كيفية ومكان صنع القطع واستعمالاتها في الأرجاء المختلفة من البلاد، ولأي مرض وما هو مفعولها، ... إلخ."[٤٧] تقول ليلى منطورة أن أباها بدأ جمع الحجب سنة ١٩٠٥،[٤٨] وفي الإمكان الافتراض أن أفكاره عن ذلك كانت ناضجة تماماً بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٢.[٤٩]

تنعكس المعتقدات الغيبية في استخدام الحجب، كالرقي والتعاويذ والطلاسم. وتنجم أهمية دراسات كنعان في هذا المجال عن أن هذه الأشياء تدرس أول مرة ضمن مجالات استخداماتها، التي كانت ما زالت حية في بداية القرن العشرين في ثقافة الفلاحين والبدو الفلسطينيين، من قبل عربي قادر على فهم الدلالات الخفية في لغة المعتقدات المرتبطة بهذه الممارسات. وتتمثل هذه اللغة بالكلمة والإيماءة والرسم. يكتب كنعان في تمهيده لكتاب "المعتقدات الغيبية..." "كم من الأمور الكثيرة في المعتقدات الغيبية لا يمكن نطقه ولا يلمح إليه إلاّ بكلمات غريبة يبدو أنها تصل إلى حدود اللامحسوس. وينبغي الاستعاضة عن الكلمة بالرسوم والصور، الإشارات، والتصرفات، لأن نطق الكلمة يعرض وسيلة الشفاء بالغيب للفشل. وندخل بذلك عالماً من الرموز الغيبية المتشابكة، التي تغمر الحياة الشرقية برمتها."[٥٠]

والصعوبة التي تواجه الباحث في هذا المجال هي أن الموضوع نفسه له علاقة بمعرفة تسيطر عليها وتحميها أقلية من أصحاب الاختصاص كالشيوخ والعرافين، كالشامان، الظاهرة المعروفة في دراسات الشعوب. وقد نشر البعض من هؤلاء الشيوخ كتباً تعالج جوانب متنوعة من هذه المعرفة، كـ "شموس الأنوار" لابن الحاج الطلسماني،[٥١] و"شمس المعارف الكبرى" للبوني،[٥٢] استفاد منها كنعان في كتابه، بالإضافة إلى مخطوط في المكتبة الخالدية (القدس) يحتوي على تفاسير للطلاسم.[٥٣] والانطباع العام لدى مؤلف المقال الراهن أن هذه الكتب، على الرغم من انتشارها في الأوساط الشعبية في المدن، هي أقرب إلى مجموعة من الملاحظات والإرشادات كان مؤلفها يستخدمها في مهنته وليس الغرض منها التحليل أو التفسير.[٥٤] وفي هذا الإطار استفاد كنعان من مصادر تاريخية متعددة والمعلومات المستقاة من الشيوخ، ومن المصابين (المرضى) أنفسهم، بالإضافة إلى تفسيراته الخاصة.

ولا تعني عبارة "الطب الشعبي" المتضمنة في عنوان الكتاب، كما يبدو أول وهلة، الممارسات الشعبية المتوارثة منذ القدم في معالجة الأمراض الجسدية بمختلف أشكالها، أو تأمين الوقاية باللجوء إلى مستخلصات طبيعية، من النباتات وغيرها، مما أثبت نجاعته مع التجربة المتكررة عبر الأجيال. ونادراً ما يتطرق كنعان إلى هذا الشكل من أشكال المعالجة، أو المواد المستخدمة فيه. كذلك لا يعالج كنعان في كتاباته بصورة عامة العرافة أو قراءة البخت عند الشيخ أو البصارة. ولا بد من الإشارة إلى أن كنعان يطابق بين ما يسميه "الطب الشعبي" والطب بمعناه العلمي في فروعه المرتبطة، مع فارق أن الأول يربط مراحل المرض بالقوى الغيبية، أو قوى ما فوق الطبيعة، إن صح التعبير، وممارسات (المعالجة) سحرية. ولهذا نجد كنعان الطبيب يصنف الحجب تحت فروع كبيرة وهي: أسباب المرض (etiology)؛ التشخيص (diagnosis)؛ تقدير اتجاه المرض (prognosis)؛ الوقاية (prophylaxis)؛ العلاج (treatment). وبناء على ذلك يقسم كنعان فصول كتابه. ففي فرع أسباب الأمراض تدخل الأرواح الشريرة، كالقرينة، أم الصبيان، وعين الحسود، وتحت الوقاية تدخل التعاويذ وأنواع خاصة من الخرز: الخرزة الزرقاء، العيون، الشَّبَّة، وأخيراً عود الميس. ويؤخذ هذا العود من شجرة الميس (celtis australis)، التي تنمو في الحرم الشريف، ويوضع الغصن في سلسال للعنق أو على الرأس، وله مفعول خاص إذا قطع ليلة القدر في ٢٧ رمضان (ص ٦٢ ـ ٦٣). وتدخل تحت المعالجة الحجب والطلاسم بمختلف أنواعها. ويتطرق كنعان في هذا الفصل إلى الحلي، التي لها مفعول الحجب (ص ٧٧ وما بعدها)، وإلى أنواع خاصة من الحجب، كخرزة النفس وعين الهر وخرزة

الحليب (لإدرار الحليب) وغيرها (ص ١٢٧ ـ ١٢٨)، وقطع خاصة من الحيوانات، مثل قرن الحتيت (ضد التسمم) (ص ١٢٩).

يعتمد كتاب "المعتقدات الغيبية..." على مجموعة من الحجب، التي كان كنعان يجمعها بعناية فائقة، واستمر يجمعها حتى نهاية سنة ١٩٤٧.[٥٥] وعلى الأغلب أن مصدر هذه القطع هو المرضى أنفسهم من الطبقات المعدمة، وخصوصاً من الفلاحين، كتعبير عن شكرهم له، ولا سيما في فترة عمل كنعان في عدة مستشفيات وقبل أن يقوم بتأسيس عيادة خاصة به. ولهذا يمكن القول إن اهتمام كنعان بالمعتقدات الغيبية، وبصورة خاصة بالحجب، قد بدأ بعد عودته من دراسته ومباشرة حياته المهنية. تقول ليلى منطورة: "كان عمله في العيادة [العيادة التابعة لمستشفى بلدية القدس]، وزياراته إلى القرى والضيع المحيطة بالقدس ـ ذاهباً على ظهر حصان وحاملاً حقيبة مليئة بالأدوية ـ ما جعله يلاحظ أن العديد من النساء والرجال يلبسون الحجب. بعد المعالجة، كان يناقش معهم أي حماية تعطيهم إياها الحجب... فأخذ يشتري الحجب أو يأخذها بدلاً من أتعابه كطبيب."[٥٦] وفيما بعد أخذ الفلاحون يحضرون لكنعان الحجب إلى البيت، وعندما لم تسنح له فرصة التجوال في البلد كان يشتري القطع من تجار الأنتيكة، الذين كان يطلب منهم جمعها له.[٥٧]

الزواج والبيت

في كانون الثاني/يناير ١٩١٢ تزوج كنعان مارغوت أيلندر، ابنة مستورد ألماني، وكانت هدية الزفاف قطعة أرض في المصرارة. وهناك ابتنيا في سنة ١٩١٣ بيتهما الخاص وانتقلا إليه، بعد أن كانت العائلة تسكن في بيت مستأجر ولدت فيه يسمى، الابنة الكبرى، ولا يعرف مكانه. أمّا بيت المصرارة، فقد بقي في الأرض الحرام بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧، وما زال قائماً حتى اليوم. وقد رزقت العائلة في هذا البيت ثيو، وندى، وليلى.

في بيت العائلة الجديد افتتح كنعان عيادته. وكان في القدس آنذاك أربع عيادات لأطباء من دول متعددة، إحداها عيادة كنعان، التي كانت العيادة العربية الوحيدة في القدس، إلى جانب عيادات أرمنية وإيطالية وإنكليزية.

الحرب العالمية الأولى

عُيّن كنعان سنة ١٩١٣[٥٨] مديراً لفرع الملاريا التابع لـ "المكتب الصحي المختلط"؛ وهو مركز عالمي لإجراء الأبحاث الطبية والفحص المجهري أسسته "الجمعية الألمانية لمحاربة الملاريا"، و"المكتب الصحي اليهودي"، و"جمعية الأطباء والعلماء اليهود لتحسين الصحة في فلسطين".[٥٩]

عاد كنعان، بعد مكوثه في ألمانيا أربعة أشهر، إلى الوطن ليعمل، على الأغلب لفترة وجيزة قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى في آب/أغسطس ١٩١٤، في المستشفى الألماني إلى جانب غروسندورف، وربما بقي في منصبه حتى تشرين الأول/أكتوبر عندما شاركت الدولة العثمانية فعلياً في الحرب. وكونه كان يحمل الجنسية العثمانية فقد أُجبر على الالتحاق بالجيش العثماني، وعمل في أوضاع صعبة، ومثل الكثيرين من الضباط آنذاك أصيب بالكوليرا والتيفوئيد.[٦٠] في البداية كان طبيب فرقة في الناصرة، وفي السنة نفسها نقل إلى عوجا الحفير، حيث عينه رئيس الأطباء الألمان مديراً للمختبرات على جبهة سيناء،[٦١] وعلى الأغلب ضمن وظيفته هذه تنقل بين بئر السبع وبيت حانون وغزة وشيخ نوران.[٦٢] وقد اغتنم كنعان فرصة تنقله في المنطقة ووجوده في عدد من المدن، كدمشق وعمان وحلب، ليقوم في هذه الفترة بجمع كمية كبيرة من الحجب زادت على مئتي قطعة.[٦٣]

مستشفى الجذام

بعد انتهاء الحرب عاود كنعان نشاطه المهني وتسلم في سنة ١٩١٩ إدارة مستشفى الجذام (ملجأ المجذومين) في الطالبية،[٦٤] الذي كان يدعى عون

المسيح،[٦٥] وذلك بعد وفاة رئيسه د. أينسلر، وقد بقي فيه حتى نهاية عهد الانتداب.[٦٦] وكان مستشفى الجذام الوحيد من نوعه في سورية وفلسطين وشرق الأردن.[٦٧] وتجدر الإشارة إلى أن الجذام كان يعتبر أحد الأمراض غير القابلة للعلاج، غير أن التقدم البكتيريولوجي والفحص المجهري، الذي شارك فيه كنعان نفسه، جعل في الإمكان لا معالجة هذا المرض فحسب بل أيضاً تحقيق الشفاء منه باستخدام مشتقات زيتية من نبتة الخاولمورغا. ويقول كنعان إنه منذ سنة ١٩٢١ "عولجت [في مستشفى الجذام] بكل تصميم كل حالة كان هناك أمل من الشفاء منها، ولو كان ضئيلاً جداً."[٦٨] وفي سنة ١٩٢٣ أعيد افتتاح المستشفى الألماني مع قدرة استيعاب لخمسين مريضاً، غير أنه كان بحاجة إلى ترميم، ولم يبدأ العمل فيه فعلاً إلاّ في السنة التالية. وقد كان في المستشفى ثلاثة أقسام: القسم الباطني؛ قسم الأمراض النسائية؛ قسم الجراحة. وكان مسؤولاً عن هذه الأقسام على التوالي: د. كنعان؛ د. شوتسينغر؛ د. بسكيند. وعندما توفي الأخير سنة ١٩٢٦ حل محله الجراح د. إبرهارد غميلين، الذي كان على علاقة وثيقة بكنعان.[٦٩] وبقي كنعان مسؤولاً عن القسم الباطني حتى سنة ١٩٤٠، عندما تعذر استمرار العمل في المستشفى الألماني، وكان الرعايا الألمان غادروا فلسطين في سنة ١٩٣٩، وبينهم غميلين،[٧٠] أو تم اعتقالهم من قبل السلطات البريطانية. وفي سنة ١٩٢٢ سافر كنعان إلى برلين ليشارك في مساقات تدريبية نظمتها "العيادة الطبية الثالثة" هناك.[٧١]

النضال السياسي

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية في أيلول/سبتمبر ١٩٣٩، اعتقلت السلطات البريطانية كنعان في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٣ أيلول/سبتمبر ١٩٣٩، أي في اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا. ومثل مرتين أمام المحكمة، التي أمرت بإطلاقه، إلاّ إن ما يسمى "قسم التحقيقات الجنائية" عارض ذلك، فسجن تسعة أسابيع في سجن عكا. وقد طال الاعتقال زوجته، كونها تنحدر من أصل ألماني، وأخته بدرة، التي اتُهمت "بإثارة النساء العربيات ضد بريطانيا." وسجنت زوجته وشقيقته في سجن النساء في بيت لحم مع السجينات الجنائيات اليهوديات، الأولى لمدة تسعة أشهر، والثانية لمدة أربعة أعوام. وفي نهاية فترة احتجازهما نقلتا إلى فيلهيلما، جنوبي غربي العباسية (قضاء يافا)، وهي إحدى المستعمرات الألمانية التي حولت إلى معسكر اعتقال للفلسطينيين الألمان.

كان لزوجة كنعان وشقيقته بدرة نشاط ملحوظ منذ بداية الثورة سنة ١٩٣٦؛ تكتب ليلى منطورة عن ذلك: "في العام ١٩٣٤ كانت أمي وعمتي بدرة من بين المؤسسات للجنة السيدات العربيات في القدس،[٧٢] التي كانت جمعية خيرية في البداية، إلاّ إنها سرعان ما اتخذت طابعاً سياسياً في العام ١٩٣٦ خلال الإضراب العام." وعلى الرغم مما تقوله ليلى منطورة، فقد كان للجنة السيدات العربيات نشاط سياسي قبل سنة ١٩٣٦، ابتداء من تاريخ تأسيس لجنة في القدس ومدن أُخرى، وذلك في إثر عقد مؤتمر عام للمرأة الفلسطينية في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، إلى ذروة نشاط اللجنة في أيار/مايو ١٩٣٦، التي دعت علناً إلى العصيان المدني والاستمرار في الإضراب.[٧٣] وقد شاركت بدرة كمساعدة سكرتيرة في الوفد الفلسطيني إلى "المؤتمر النسائي الشرقي"،[٧٤] الذي عقد في القاهرة في أواسط تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨ لنصرة فلسطين.[٧٥]

يذكر يعقوب العودات[٧٦] أن كنعان وزوجته وشقيقته اتهموا بـ "الدعاية لألمانيا الهتلرية". ولم يعرف ما إذا كانت هذه هي التهمة الرسمية التي وجهت إليهم، ولا طبيعة المحاكم التي حوكموا أمامها. ومهما يكن الأمر، فإن ذلك يدخل ضمن إطار السياسة البريطانية في القضاء على ما تبقى من حركة المقاومة الفلسطينية وضرب رموزها،

وكان اندلاع الحرب العالمية الذريعة لذلك. فمنذ بداية ثورة ١٩٣٦ عبر كنعان تعبيراً واضحاً عن رفضه السياسة البريطانية والصهيونية وفتْح باب الهجرة على مصراعيه أمام اليهود. ولم يدخر كنعان وسعاً في التصدي للصهيونية، كلما سنحت له الفرصة، كما في رده على مقال في إحدى الدوريات الطبية الألمانية سنة ١٩٢٥ يسهب كاتبه في عرض المنشآت الصحية اليهودية، والصهيونية بصورة خاصة، ويذكر باقتضاب تلك الفلسطينية، ونُشر الرد في الدورية نفسها.[٧٧] واستمر كنعان في هذا النهج حتى بعد سنة ١٩٤٨؛ ففي سنة ١٩٤٩ يرد على ما جاء في مصدر أميركي رسمي من أن الإحصاءات الحديثة تشير إلى أن "نسب الوفاة بين اللاجئين الفلسطينيين لا تخرج عن إطار ما هو مألوف في الشرق الأدنى."[٧٨]

قضية عرب فلسطين

تجلى موقف كنعان السياسي في عملين هما "قضية عرب فلسطين" و"صراع في أرض السلام" (كلاهما في سنة ١٩٣٦)، نشر الأول بالإنكليزية والعربية والفرنسية،[٧٩] بالإضافة إلى مقالات نشرت في الصحافة المحلية والعالمية. ومن الواضح أن كتيب (٤٨ صفحة) "قضية عرب فلسطين"، الذي وضع أصلاً بالإنكليزية (٢٢ صفحة)، هو أشبه بمنشور سياسي موجه إلى الرأي العام البريطاني ومن فلسطين، في خضم الأحداث التي تعاقبت مع بداية الإضراب العام في ٢٠ نيسان/أبريل ١٩٣٦. وكان الكتيب نشر على شكل مقالات في الصحافة المحلية والأجنبية بعد فترة وجيزة من بداية الإضراب العام.[٨٠] ومن الواضح أن نشاط كنعان هذا كان، من وجهة نظر سلطة الانتداب، أقرب إلى النشاط الهدام. ولكنعان موقف واضح من المطالب الوطنية التي كانت بالنسبة إليه لا تقبل المساومة أو المهادنة، كما يستدل من وثيقة وجهت إلى اللجنة العربية العليا بتاريخ ٦ آب/أغسطس ١٩٣٦، وقّعها كنعان إلى جانب شخصيات وطنية كثيرة.[٨١] وثمة دليل غير مؤكد على أن كنعان كان يؤيد بقوة تزويد الثوار العرب بالسلاح.[٨٢]

يختتم كتيب "قضية عرب فلسطين" "بمناشدة كل سيدة بريطانية وسيد بريطاني لديه حس بالعدالة أن يساعد الفلسطينيين في جهادهم في سبيل البقاء." ويلاحظ في هذه المناشدة لهجة كنعان الحازمة، عندما يكتب: "إننا سنواصل جهادنا في سبيل الحياة، بالطرق السلمية، حتى نموت موتاً لا قيام بعده، أو نصل بعون الله إلى حياة أفضل"، في حال عدم الاستجابة لمطلب العرب الفلسطينيين الأساسي، وهو الإيقاف الفوري والكامل للهجرة الصهيونية (ص ٤٧). وفي المطالبة بضمان حد أدنى من الأرض للمزارعين وعدم نزع ملكيتها، يتجلى موقف كنعان الإيجابي بصورة صريحة من الفلاحين، القوة الإنتاجية الرئيسية في فلسطين، وعلى الرغم من انتمائه الطبقي، حيث تبدو هذه المقولات اليوم كدعوة إلى الإصلاح الزراعي. ويتساءل كنعان عما إذا كان القصد من السياسة البريطانية "حمل الفلسطينيين العرب على إخلاء أراضيهم بأجمعها ليفسحوا مجالاً لليهود." ويكتب عن السياسة نفسها أنها تقوم "بحملة مدمرة على العرب بقصد إبادتهم في بلادهم." وكذلك لا يفوت كنعان الإشارة إلى قوانين الجنسية التي وضعتها حكومة الانتداب بصيغة تمنع المغتربين الفلسطينيين في الأميركتين، في حينها من رعايا الدولة العثمانية، من الحصول على المواطنة الفلسطينية. ويعكس توجه كنعان في "قضية عرب فلسطين" تقويماً للقضية الفلسطينية من منظور وطني واضح، على الرغم من اللهجة الاعتذارية تجاه بريطانيا أحياناً، والتي قد تبدو غير ملائمة من منظور عصري.

صراع في أرض السلام

يقع كتاب "صراع في أرض السلام" في ١١٨ صفحة، ويمثل عرضاً مفصلاً وموثقاً للقضية الفلسطينية، ويرد فيه على منتقدي "قضية عرب

فلسطين"، وخصوصاً على "تعليقات" لمجهول نشرت على شكل منشور، يعرض فيه كاتبه "الفوائد" التي جناها سكان فلسطين من المهاجرين اليهود. يفند كنعان الفوائد المفترضة، الواحدة تلو الأخرى، كوجود العلماء في الجامعة العبرية والمستشفيات، والأموال التي دخلت فلسطين، وشراء الأراضي (!)، وارتفاع مستوى المعيشة بين الفلسطينيين، وتحسن الزراعة، وارتفاع معدل الأجور للعامل الفلسطيني، وتحسن الأوضاع الصحية عند الفلاحين. وبالنسبة إلى النقطة الأخيرة، يورد كنعان معلومات غير معروفة، وهو المطلع على الموضوع اطلاعاً جيداً، وخصوصاً تجفيف المستنقعات والقضاء على الملاريا، وله أبحاث نظرية وميدانية كثيرة في هذا الشأن. في البدء، لا ينكر كنعان أن اليهود قاموا بتجفيف بعض المستنقعات والمخاضات هنا وهناك، وبالتالي ساهموا في القضاء على وباء الملاريا المنتشر. غير أن هذه الأعمال الوقائية قد أُجريت، في الدرجة الأولى، لضمان وجود المستعمرين اليهود أنفسهم ولتحويل أراض اشتُريت بثمن بخس إلى أراض زراعية. ويشير كنعان إلى أن اليهود استخدموا عمالاً من مصر لحفر قنوات واسعة تتطلبها عملية التجفيف، وقد قضى العشرات من هؤلاء نحبهم، كما جاء في كتيب عن الخضيرة يستشهد به كنعان معلقاً على ذلك: "قدم البارون دو روتشيلد الأموال، وقدم المصريون حياتهم."

ويضيف كنعان ما لا يذكره الصهيونيون من أن الفلسطينيين جففوا أيضاً المستنقعات بإشراف دائرة الصحة، وما أُنجز في هذا المجال هو، ولا شك، أكبر مما قام به اليهود. وقد قدم العرب لهذه الأعمال دعماً مالياً وعمالة غير مدفوعة في المناطق التالية: بركة رمضان، وادي روبين، وادي القباني، اللجون، نهر النعامين، الطنطورة، دير البلح، وعشرات الأودية في أرجاء فلسطين كافة.

وأخيراً، يذكر أن الأعمال التي قامت بها مؤسسة روتنبرغ اليهودية للطاقة الكهرومائية أدت إلى خفض مستوى بحيرة طبرية وإلى انتشار الملاريا مباشرة. ويستشهد كنعان في هذا الشأن بتقريرين صادرين عن دائرة الصحة لسنة ١٩٢٤ ولسنة ١٩٣٥ من أن ازدياد حالات الملاريا على شواطئ طبرية جاء نتيجة مباشرة لانخفاض مستوى البحيرة، وهو ما وفر بيئة مثالية لنمو جرثومة الملاريا. وقد حدث ذلك في تل حوم، والطابغة، والمجدل، وطبرية. وكان هناك باستمرار حالات عدوى بالملاريا بين سكان البدو وفي القرى العربية حول طبرية (ص ٨٦ ـ ٨٨).

الجمعية الطبية العربية لفلسطين

تأسست الجمعية الطبية العربية لفلسطين في ٤ آب/أغسطس ١٩٤٤ تنفيذاً لقرارات المؤتمر الطبي العربي، الذي عقد في حيفا سنة ١٩٣٤، لتضم تحت لوائها الجمعيات الطبية القائمة في مختلف المدن. وقد اختير كنعان رئيساً لها، والدكتور رشدي التميمي (حيفا) نائباً للرئيس، والدكتور محمود طاهر الدجاني أميناً للسر ومديراً للمكتب، والدكتور سعيد الدجاني خازناً. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٥ صدر العدد الأول من مجلة الجمعية ("مجلة الجمعية الطبية العربية لفلسطين"، بالعربية والإنكليزية)،[٨٣] وكان كنعان عضواً في هيئة تحرير المجلة، والدكتور محمود الدجاني المحرر المسؤول. وبعد شهر واحد عقدت الجمعية أول مؤتمر طبي في فلسطين في تموز/يوليو ١٩٤٥ دعت إليه هوارد فالتر فلوري، الذي حاز في السنة نفسها جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء والطب لتمكنه من عزل وتنقية البنسيلين للاستخدام الطبي العام. ومنذ البداية لم يقتصر نشاط الجمعية على فلسطين، إذ قدمت الجمعية إلى سورية، في إثر الاعتداء على البرلمان فيها، مساعدة بمبلغ ٧٠٠ جنيه لإنفاقه على أعمال الإسعاف. وكانت الجمعية بدأت منذ تأسيسها بعدد من المشاريع، غير أنه لم يتسن لهذه المشاريع أن ترى النور بسبب أحداث ١٩٤٧/١٩٤٨. ومن هذه المشاريع "مشروع القرش" لجمع تبرعات من أجل بناء مستشفى المرحومة أمينة بدر الخالدي، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت

الجمعية من جمع مبلغ ١٥٠٠ جنيه.[٨٤]

كان للجمعية دور فعال عندما أخذت الأوضاع السياسية والأمنية تتدهور في فلسطين، وقامت بواجبها على أفضل وجه، على الرغم من الظروف الصعبة والخطرة التي كانت تواجه عمل الجمعية وأعضاءها، كمقتل الطبيبين ميخائيل معلوف وجبرا ناصر، وإصابة راغب الخالدي بجروح في أثناء تأديته واجبه. وقد بادرت الجمعية إلى تدريب وتنظيم وحدات ومراكز إسعاف في المدن والقرى، وتقديم المعونة الطبية للمجاهدين من الفلسطينيين والعرب، وقامت بالاتصال بهيئة الصليب الأحمر والتعاون معها للمحافظة على المستشفيات وغيرها من المؤسسات الإنسانية. وبذلت الجمعية قصارى جهدها لإيجاد الموارد اللازمة، فوجهت نداء إلى الجمعيات الطبية وهيئات الهلال الأحمر والصليب الأحمر في عدد من العواصم العربية، فاستجاب بعض هذه العواصم بإرسال معونات طبية محدودة. ومع اقتراب موعد انتهاء الانتداب، أسست في ٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ لجنة الإسعاف العربية العليا كي تتولى استلام ما يرد إلى البلد من مساعدات والإشراف على توزيعها بناء على مبادرة الجمعية وبتنسيق مع الهيئة العربية العليا، ترأسها الدكتور حسين فخري الخالدي، وشارك في عضويتها توفيق كنعان، وزليخا الشهابي، رئيسة الاتحاد النسائي، وعزت طنوس، أمين سر بيت المال العربي، ومحمود الدجاني، أمين سر الجمعية. لكن اتصالات الجمعية المتكررة بجميع المراجع العربية المسؤولة لاستلام المستشفيات كانت من دون جدوى.[٨٥]

النكبة والنزوح

في ٢٢ شباط/فبراير ١٩٤٨ أصابت قنابل وقذائف من مدافع الهاون بعض المنازل العربية في حي المصرارة،[٨٦] وعلى الأغلب في نهاية هذا الشهر ترك الأطفال البيت، ليبقى فيه الوالدان، بدرة، ونورا، أخت عقيلة كنعان.[٨٧] وتخبرنا ليلى منطورة أن كنعان تمكن من وضع مجموعة حجبه و٢٥٠ أيقونة عند منظمة دولية في القدس الغربية في بداية السنة.[٨٨] وتقول إن العائلة تركت البيت بعد إصابته إصابة مباشرة بتاريخ ٩ أيار/مايو، بحقيبة ثياب صغيرة لكل فرد منها، ودخلت البلدة القديمة ليلاً عقب ترتيبات مسبقة بين كنعان وبطريركية اللاتين بعد التسلل عبر باب صغير يؤدي إلى سطح دير اللاتين. وقد وضع بطريرك الروم الأورثوذكس في تصرفها في الدير غرفة واحدة للعيش فيها.[٨٩] ومكثت العائلة في هذا المسكن عامين ونصف عام. وتكتب منطورة عن هذا الحدث المأساوي في حياة العائلة: "يومياً كان أبي وأمي يذهبان إلى سور القدس يراقبان بيتهما ويشهدانه يُنهب يوماً بعد يوم: المكتبة الثمينة الرائعة، التي كانت أمي ترعاها بكثير من الفخر وقليل من الغيرة. مخطوطاته، التي كانت تراجعها، أثاثها الفاخر، كانت تحمّل في شاحنات تذهب بها بعيداً... وأخيراً شهدا إحراق البيت. كان ذلك واحداً من أقسى ما عاناه أبي وأمي ولا أعتقد أنهما كانا قادرين على نسيانه." وهكذا فقد كنعان بيته، ومكتبته،[٩٠] وثلاث مخطوطات كانت معدة للنشر.

وعلى الرغم من هذه الأحداث المؤلمة التي ألمت بعائلة كنعان، والقلق الذي كان يعتريها من هجوم صهيوني محتمل على البلدة القديمة، فقد واصل كنعان عمله كطبيب وأخذ يعالج المرضى في مسكنه الجديد، المتواضع، واستمر، كرئيس للجمعية الطبية العربية لفلسطين، في القيام بواجبه تجاه وطنه، كما شهد على ذلك كل من عبد الله التل،[٩١] وعزت طنوس.[٩٢]

وفي خطوة نحو الحفاظ على المستشفيات، نجحت الجمعية الطبية العربية لفلسطين برئاسة كنعان، بعد مداولات مضنية مع حكومة الانتداب، في تسلم عدد من المستشفيات في القدس وبيت لحم، وهي المستشفى المركزي ومستشفى الهوسبيس (القدس)، ومستشفى الأمراض السارية بالقرب من بيت صفافا، ومستشفى الأمراض العقلية في بيت لحم.[٩٣]

كانت الجمعية الطبية العربية استلمت رسمياً، في بداية أيار/مايو ١٩٤٨، من حكومة الانتداب المستشفى المركزي ومرافقه في المسكوبية ومستشفى الهوسبيس النمساوي. بدأ الأول، الذي كان يشرف عليه أسعد بشارة، باستقبال الجرحى والمرضى. وعلى الرغم من أن علم الصليب الأحمر مرفوع فوق المبنى، فإن هذا لم يمنع اليهود من قصفه حتى هُدم جزء كبير منه، ثم قام اليهود باحتلال البيوت المحيطة به وجزء منه، مع الاستمرار في قصفه حتى تعذر على أي كان الوصول إليه فاضطرت الجمعية إلى إخلائه في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨. أمّا الهوسبيس النمساوي، الذي حولته حكومة الانتداب إلى مستشفى في بداية سنة ١٩٤٨، فقد أشرف كنعان على إدارته وأدى واجبه فيه،[٩٤] هو ونفر من الأطباء والممرضات والمتطوعات، ببسالة في إبان معركة القدس، إلى أن اضطرت الجمعية إلى إخلائه بسبب القصف المتواصل.[٩٥]

بداية جديدة

في تلك الفترة الصعبة من عمر القدس، وعقب تدفق اللاجئين عليها، قام الاتحاد اللوثري العالمي بتعيين كنعان "مديراً للأعمال الطبية"، وبتأسيس عيادات في "هوسبيس مار يوحنا"، في جوار المحطة الثامنة في البلدة القديمة، وفي العيزرية والخليل وبيت جالا والطيبة (قضاء رام الله)، ساهم كنعان في إنشائها. وكان كنعان يواظب أيضاً على زيارة العيادات المتنقلة، التي أنشأها الاتحاد في مناطق ريفية لم تكن فيها عيادات دائمة.

وفي سنة ١٩٥٠، وبالتعاون مع الأونروا والاتحاد اللوثري العالمي، وبجهد من كنعان، أُسس مستشفى أوغستا فيكتوريا (مستشفى المُطَّلَع) في المبنى بالاسم نفسه والواقع على جبل الطور، وعين كنعان أول مدير طبي له حتى ربيع سنة ١٩٥٥.

السنوات الأخيرة

لم يتمكن توفيق كنعان وزوجته من التغلب على خسارة ابنهما ثيو، الذي قضى نحبه سنة ١٩٥٤ وهو يقوم بعمله، كمعماري، في ترميم أحد المعالم الأثرية في جرش. وحينما تقاعد كنعان، وهو في الخامسة والسبعين من العمر، مُنح في أرض مستشفى أوغستا فيكتوريا بيتاً أمضى فيه مع عائلته سنوات تقاعده حيث واصل الكتابة والعطاء حتى آخر سني عمره. وعلى الأغلب لم يتسن له رؤية مقاله الأخير "الجريمة في تقاليد وعادات عرب الأردن"،[٩٦] الذي نشر بالألمانية في مجلة "جمعية فلسطين الألمانية" في عددها الثمانين لسنة ١٩٦٤.

وفي ساعات الصباح الأولى من يوم ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٦٤، أسلم توفيق كنعان الروح في مستشفى أوغستا فيكتوريا. ودفن جثمانه في المقبرة الإنجيلية اللوثرية في بيت لحم، قريباً من بيت جالا حيث أمضى طفولته.

مكانة وتقدير

كان كنعان، بحكم مركزه، على صلة بقطاعات واسعة من المجتمع الفلسطيني، وامتدت خدماته الطبية إلى الناس من مختلف الطبقات، كالشريف حسين، الذي عاينه كنعان في عمان مع عدد من الأطباء من القدس قبيل وفاته سنة ١٩٣١،[٩٧] أو الثائر الوطني أبو جلدة، الذي قام كنعان بمعالجته سراً، على الأغلب في سنة ١٩٣٦، بانتزاع رصاصة من فخذه.[٩٨]

ويتكرر اسم كنعان في السير الذاتية للنخب الفلسطينية؛ فها هو يسهر مع خليل السكاكيني في دمشق سنة ١٩١٨، عندما اضطر الأخير إلى البقاء هناك حتى نهاية الحرب،[٩٩] ويذكره عزت طنوس في عدة مناسبات أشير إلى بعضها فيما سبق. وكان الكثيرون من معارفه يهدونه قطعاً لإثراء مجموعته من الحجب، ومن هؤلاء موسى كاظم الحسيني، واللبناني الدكتور إبراهيم بك علم الدين،[١٠٠] رئيس قسم الأمراض الزهرية في دائرة الصحة، ومن غير العرب: هيرمان شنلّر، حفيد مؤسس "دار الأيتام السورية"، ويوهان لودفيغ شنلّر، مدير الدار حتى

سنة ١٩٤٠.[١٠١] وكان كنعان يتبادل القطع مع ليديا أينسلر،[١٠٢] زوجة الدكتور أدولف أينسلر وابنة كونراد شيك، المعماري المعروف،[١٠٣] والبعض عرفه طبيباً فقط، مثل الشيوعي عودة الأشهب الذي عاينه كنعان سنة ١٩٣٥ في عيادته "في أول حي المصرارة" عندما كان الأخير فتى يافعاً يعارك الحياة في القدس.[١٠٤] كما عرف كنعان عدداً من المتخصصين المعروفين في مجال الآثار والعهد القديم، وكان ينظر إليهم كأصدقاء له، ومنهم ويليام فوكسويل ألبرايت، ونيلسون غلوك، وكاتلين كينيون، وكلهم في مجال الآثار الفلسطينية، وألبريخت ألت ومارتن نوت، الأول راعي (بروبست)[١٠٥] الطائفة الإنجيلية الألمانية (كنيسة الفادي) ومدير المعهد الألماني الإنجيلي (١٩٢١ ـ ١٩٢٣)، وكلاهما رائد في دراسات العهد القديم في ألمانيا. وكان على علاقة وثيقة بهانس فيلهيلم هيرتسبرغ، المتخصص مثل ألت بالعهد القديم والذي تبعه كراعي الطائفة للسنوات ١٩٢٣ ـ ١٩٣٠.[١٠٦] وبين الكثير من الأطباء الذين كان لكنعان علاقة بهم، مما أشرنا إليه أعلاه، نذكر بصورة خاصة طبيب العيون المشهور الدكتور اليهودي، التشيكي الأصل، أبراهام (ألبرت) تيخو.[١٠٧] وإلى جانب ترؤسه مستشفى يهودي للعيون، أُغلق سنة ١٩١٨، فقد كانت لتيخو عيادة (٢٠ سريراً) يُجري فيها عمليات جراحية. ومثل كنعان، كان تيخو أيضاً باحثاً بارزاً في مجال اختصاصه، طب العيون، وذاع صيته ليتجاوز فلسطين فيشمل المنطقة بأجملها حتى إيران والهند. ومن معارفه الدكتور شفيق نصر حنا حداد[١٠٨] من حيفا، الأخصائي بأمراض المناطق الحارة، والذي درس مثل كنعان في الجامعة الأميركية في بيروت وتخرج من جامعة ليفربول سنة ١٩٣١ بتفوق ومنحته الجامعة المدالية الذهبية. وكذلك كان على علاقة وثيقة بالدكتور يوسف حجار،[١٠٩] اللبناني الأصل، الذي كان يعمل كطبيب وجراح أول في المستشفى الحكومي في القدس، ويحمل وسام "عضو في الإمبراطورية البريطانية". ومن الشخصيات التي كانت تتردد على بيت كنعان، يهودا ليون ماغنس، الذي ساهم جذرياً في تأسيس الجامعة العبرية وترأسها للفترة ١٩٢٥ ـ ١٩٤٨، والمعروف بمواقفه التوفيقية بين العرب واليهود، وهو مؤلف كتاب "مثل بقية الشعوب...؟"، الذي يستشهد به كنعان مراراً في كتابيه "قضية عرب فلسطين" و"صراع في أرض السلام".

وكان كنعان يعرف الشيوخ من صانعي الحجب، ومن المنجمين وأصحاب الطرق الصوفية. ومن هؤلاء إبراهيم حسن الأنصاري (الدنف)، وهو من سدنة الحرم الشريف، والشيخ عاطف الديسي، وهو من أصحاب الطريقة القادرية، والشيخ المشهور محمود العسكري (الفلكي) من الظاهرية، وكان يمارس مهنة التنجيم في القدس. كما كان كنعان يعرف تجار الأنتيكة، الذين كان يقتني منهم الحجب، نذكر منهم أوهان، التاجر الأرمني المعروف، الذي كان حتى سنة ١٩٤٨ يملك متجراً في حي الدباغة في القدس.[١١٠]

كان كنعان عضواً في الهيئة الإدارية لجمعية الشبان المسيحية في القدس، واختير رئيساً لها ثلاث مرات، وعضواً دائماً في مجلس إدارتها. وعندما تقاعد واعتزل العمل أصبح عضواً فخرياً فيها طوال حياته. وضع كنعان حجر الأساس لمبنى مستشفى الجذام الجديد على جبل النجمة على الطريق إلى بير زيت، وقد أعيد بناؤه بإشراف الأخوات المورافيات، وكان مستشاراً للمستشفى حتى سنة ١٩٥٦.

مُنح كنعان ثمانية أوسمة تقديرية، نعرف منها وسام "الهلال الأحمر" و"الصليب الحديدي"، وكلاهما من الحرب العالمية الأولى، و"صليب القبر المقدس" مع شريط أحمر قلده إياه بطريرك الروم الأورثوذكس سنة ١٩٥١. وفي السنة نفسها نال وسام "صليب الاستحقاق الاتحادي" من جمهورية ألمانيا الاتحادية.[١١١] ■

المصادر

(١) Canaan 1914؛ سنشير إلى هذا العمل فيما يلي بـ "المعتقدات الغيبية...".

(٢) ما زال هذا المركز قائماً في توبنغن، ويعتبر أحد المراكز الرئيسية لطب أمراض المناطق الحارة في ألمانيا.

(٣) فيما يلي هذه السِير بحسب تسلسل تواريخ نشرها: حداد ١٩٦٤؛ العودات ١٩٧١؛ سرحان ١٩٧٢؛ أبو حمد ١٩٧٩؛ الزركلي ١٩٨٠، ص ٩١؛ يسمى كنعان ١٩٨١؛ "الموسوعة الفلسطينية" ١٩٨٤، ص ٦٠٤؛ حمادة ١٩٨٨، ص ٥١ – ٥٢؛ سرحان ١٩٨٨؛ حداد ١٩٩٤، ص ٤٠٥ – ٤٠٨ (عن بشارة وتوفيق كنعان)؛ العسلي ١٩٩٤، ص ٢٥٣ – ٢٦٥؛ حديدي ١٩٩٧؛ طه ١٩٩٨. أنظر أيضاً الحاشيتين ٥ و٧ أدناه. خصصت مجلة "الجنى"، التي تصدر عن مركز المعلومات العربي للفنون الشعبية (بيروت)، عدداً كاملاً (٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤) لتوفيق كنعان، لكن المساهمات في هذا العدد (سحاب؛ سليمان؛ القش ١٩٩٤) لا تضيف ما هو جوهري إلى ما كان معروفاً سابقاً.

(٤) نُشر المقال بالإنكليزية (يَسْمى كنعان ١٩٨١) في العدد نفسه. اعتمدنا هنا على النص الإنكليزي (Yasma Canaan 1981).

(٥) كتب كنعان عن عائلته مرتين: Canaan 1954; 1961.

(٦) باستثناء العسلي (١٩٩٤)، الذي استفاد من رسالة دكتوراه ألمانية عن تطور المستشفيات في القدس من نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين (أنظر قائمة المراجع: Schwake 1983). لكن لم يستفد أحد من Olpp 1932، الذي حصل على المادة من كنعان نفسه.

(٧) حرر النسخة الإنكليزية من هذا "الكاتالوغ" كاتب هذا المقال (Nashef 1998)، وبالعربية وسام عبد الله (عبد الله ١٩٩٨أ)، التي ساهمت فيه أيضاً بكتابة "توفيق كنعان: سيرة حياة" (عبد الله ١٩٩٨ب). وقد استفادت وسام من رسالة لليلى منطورة، ابنة كنعان، ألقت فيها الضوء على بعض جوانب حياة أبيها (منطورة ١٩٩٨أ). واحتوى "الكاتالوغ" أيضاً على مساهمة لليلى منطورة نفسها (منطورة ١٩٩٨ب)، فيها معلومات لم تكرر في مقال عبد الله. ولضيق المجال في "الكاتالوغ" غلب على المقالين السابقين طابع الإيجاز.

إن اقتضى الأمر رجعنا إلى النسخة الأصلية من مقال ليلى منطورة (يشار إلى ذلك: النسخة الأصلية) أو رسالتها. أشكر السيدة فيرا تماري، رئيسة "اللجنة التأسيسية للتطوير الثقافي والتراثي في جامعة بير زيت"، على السماح لي بالاستشهاد والاستفادة من هذين المصدرين.

(٨) بالنسبة إلى سيرة حياة كنعان يعتمد هذا المقال بصورة أساسية على ما يلي: منطورة ١٩٩٨ب؛ عبد الله ١٩٩٨ب؛ العودات ١٩٧١؛ حداد ١٩٦٤؛ ١٩٩٤؛ Canaan 1961؛ Yasma Canaan 1981؛ Olpp 1932؛ Schwake 1983. ولا تذكر هذه المصادر في الحواشي إلاّ في حالة وجود حاجة إلى تعليق أو تعديل.

(٩) اعتمدنا هنا على رواية كنعان. يكتب حداد في صفحة ٣٨٠ من كتابه (١٩٩٤) أن بشارة "هو من التلاميذ الأوائل الذين جلبهم [شنلّر] من لبنان سنة ١٨٦٠." وكان حداد أشار في موضع سابق من كتابه (ص ٣٧٨) إلى أن شنلّر ذهب بنفسه إلى لبنان لإحضار أيتام للالتحاق بمدرسته، وتمكن من إحضار تسعة منهم. غير أن حداد يناقض في ذلك ما ذكره تحت سيرة بشارة كنعان من أن الأخير لجأ إلى فلسطين مع عائلته (ص ٤٠٥).

(١٠) عن يوهان لودفيغ شنلّر، مؤسس "دار الأيتام السورية"، أنظر: حداد ١٩٩٤، ص ٣٧٤ – ٣٨١.

(١١) حداد ١٩٩٤، ص ٤٠٥ بالمقارنة مع ص ٣٩٤. "جمعية القدس" مركزها برلين، وهي إحدى الجمعيات البروتستانتية الألمانية التي كانت تعمل في فلسطين.

(١٢) كنعان. وعن الاثنين أنظر: حداد ١٩٩٤، ص ٣٩٧.

(١٣) يذكر Olpp 1932, p. 59 أن اسم عائلتها هو جريس.

(١٤) دار ألمانية للشمّاسات أُسست سنة ١٨٦٣ في كايزرزفيرت (حالياً أحد أحياء دوزلدورف) فيها مدرسة، ومستشفى، وميتم.

(١٥) بحسب كنعان؛ يقول Schwake 1983, p. 323 إنها نشأت في طاليتا قومي في القدس.

(١٦) Badra Canaan 1965a.

(١٧) مثلاً مقالها Badra Canaan 1965b.

(١٨) حداد ١٩٩٤، ص ٤٠٧ وقارن بصفحة ٣٧٨؛ غير صحيح ما ذكره العودات ١٩٧١، ص ٣٢، من أن كنعان "قضى ثلاث سنوات ونصف في دار المعلمين." أنهى كنعان دراسته الثانوية في المدرسة نفسها، وتخرج من قسم المعلمين (Seminar)، أحد الصفوف، الذي خُصص لتدريب المعلمين.

(١٩) Canaan 1961, p. 18. هكذا يقول كنعان نفسه، بينما تكتب يسمى أنه كان يبلغ من العمر "١٦ سنة" عندما توفي والده، وأن العائلة أرسلته بعد ذلك إلى بيروت (Yasma Canaan 1981, p. 151). لكنه فعلاً كان في بيروت في بداية سنة ١٨٨٩، ويبلغ من العمر ١٧ عاماً.

(٢٠) يشار إلى شهادتين في الطب (Diploma) من "بيروت والقسطنطينية" (Olpp 1932؛ Yasma Canaan 1981, p.151). الإشارة إلى إستنبول غير واضحة لكاتب هذا المقال.

(٢١) ج ٣٠، ١٩٠٥، ص ٧٩٣ – ٧٩٥. نُشرت هذه الخطبة أيضاً عند غادة خوري ١٩٩٢، ص ٢٥١ – ٢٥٤.

(٢٢) يستنتج ذلك من ردة فعل الشمّاسات في تقرير لهن نشر في مجلة الشمّاسات الألمانيات لكايزرزفيرت في عددها لشهر حزيران/يونيو ١٩٠٥ (السنة الخامسة) (أنظر: Schwake 1983, p.322).

(٢٣) Schwake 1983, p. 625: ١٩٠٤، لكن كنعان في هذا التاريخ لم يكن أنهى دراسته بعد.

(٢٤) بالاعتماد على مخطوطة لتوفيق كنعان مكتوبة بالآلة الكاتبة، وهي في حيازة الأستاذ فولفغانغ باكس (القدس) اطلع عليها Schwake 1983, pp. 323 - 324. ربما كانت هذه نسخة عن مقاله "العمل في مستشفى الشمّاسات الألمانيات قبل ١٩١٤" (يذكره Von Rabenau 1962, p. 5).

(٢٥) كان غروسندورف يعمل ثلاثة أيام في الأسبوع كمسؤول إداري (Operateur) في مستشفى شعاريه تسيدك. أنظر: Schwake 1983, p. 581, n. 1.

(٢٦) لقد أسيء فهم يسمى كنعان (Yasma Canaan 1981, p. 151)، التي تقول: "and was responsible for running Shaare Zadek Hospital for eight months during Dr. Wallach's absence". في الترجمة العربية للمقال: "كان مسؤولاً عن إدارة مستشفى (شعار صيدق) لمدة ثمانية أشهر خلال غياب الدكتور (ولخ)." العسلي ١٩٩٤، ص ٢٥٥: "عمل على إدارة مستشفى شعاريه صادق..."، وهو ما يوحي بأن كنعان كان مديراً للمستشفى بالوكالة. وهذا لا يتفق مع المعلومات المتوفرة، وهي أن مَنْ مثّل فالاخ في أثناء غيابه كان الطبيبين أدولف أينسلر ود. بوفيلس (أنظر: Schwake 1983, p. 580, n. 3)، وكذلك لا يعقل من وجهة نظر طبية أن يوكل إلى طبيب تخرج حديثاً مهمات مدير مستشفى.

(٢٧) London Jews' Society، وهذا هو المقصود بالاختصار LJS المذكور عند يسمى كنعان في النص الإنكليزي، والذي حُذف من الترجمة العربية. واسم المستشفى هذا هو الصيغة الشائعة لـ London Society for promoting Christianity amongst the Jews. أنظر: Schwake 1983, p. 111.

(٢٨) تقابل هذه الجمعية "جمعية الكنيسة التبشيرية" (Church Missionary Society) الأنكليكانية والتي كانت تقوم بالتبشير بين غير اليهود وخصوصاً، في فلسطين، المسيحيين.

(٢٩) أنظر: حداد ١٩٩٤، ص ٣٥٧، وما بعدها.

(٣٠) Schwake 1983, pp. 185 - 186.

(٣١) والألمان بصورة عامة. ويستخدم كنعان هنا عبارات نمطية عن الألمان، عندما يذكر أن النجاح الكبير الذي حققته هذه المستعمرات كان بفضل "مهارة وصمود ونشاط" أعضائها (ص ٢٨٦).

(٣٢) استخدم كنعان كلمة israeliten، وهو مصطلح يستخدم في الألمانية، كما في الإنكليزية، في إشارة إلى "الإسرائيليين القدماء". ومما تجدر الإشارة إليه أن عدد المستعمرات اليهودية الذي يذكره كنعان هو ٣٠ مستعمرة! (في سنة ١٩٠٩!)، (ص ٢٨٦).

(٣٣) Schwake 1983, p. 517, n. 5، الذي لا يذكر مصدر معلوماته. أنظر أيضاً: منطورة ١٩٩٨ب، ص ٩.

(٣٤) Canaan 1911, p. 207 and n. 1.

(٣٥) International Health Bureau.

(٣٦) Canaan 1925, p. 1242.

(٣٧) منظورة ١٩٩٨أ. لا تذكر منظورة بعثة الملاريا وتقول إن مولينس بقي في القدس عامين. يذكر حداد (١٩٦٤)، ص ١٧، أن كنعان انضم إلى هذه البعثة ("بعثة البروفسور ميهلنس") سنة ١٩١٢. حداد غير دقيق عندما يقول إن كنعان كان "رئيساً لقسم مكافحة الملاريا."

(٣٨) تذكر Yasma Canaan 1981, p. 151 أن كنعان درس السل على هذا الأستاذ. "Munch"، كما جاء في النص الإنكليزي، خطأ طباعي تكرر في الترجمة العربية ("منخ"). الاسم صحيح عند العودات ١٩٧١، ص ٣٢.

(٣٩) أنظر: Von Rabenau 1962, p. 4. لا توجد معلومات دقيقة عن أبحاثه في الديزنطاريا الأميبية، التي تشير إليها Yasma Canaan 1981, p. 151.

(٤٠) الاسم الرسمي لها هو "الجمعية الألمانية لاستكشاف فلسطين" (أسست سنة ١٨٧٧)، ويجب التفريق بينها وبين "المعهد الإنجيلي الألماني"، المذكور سابقاً.

(٤١) العسلي ١٩٩٤، ص ٢٥٨. تذكر "الوقائع الفلسطينية"، العدد ٣٨٣، تاريخ ١٩٣٣/٨/٢٤، ص ١٣٧٢، والنسخة الإنكليزية، ص ١١٣٢، أن توفيق كنعان هو صاحب امتياز المجلة. أنظر: خوري ١٩٨٦، ص ٧٢.

(٤٢) "مجلة جمعية فلسطين الشرقية"، العدد ٢١، سنة ١٩٤٨، ص ١٨٩.

(٤٣) العسلي ١٩٩٤، ص ٢٥٨.

(٤٤) في البداية خمسة مقالات، وفيما بعد كتاب: Canaan 1927.

(٤٥) أعادت طباعة هذا الكتاب دار أريئيل الإسرائيلية منذ سنة ١٩٨٧ عدة مرات، وترجم مؤخراً إلى العربية؛ أنظر: كنعان ١٩٩٨.

(٤٦) بحسب عبارة في مقدمة المقال: "مترجم من كتاب للدكتور كنعان سيصدر قريباً حول موضوع 'المعتقدات الغيبية في أرض الكتاب المقدس'" (Canaan 1912, p. 150).

(٤٧) Ibid.

(٤٨) منظورة ١٩٩٨ب، ص ٩. أهدت عائلة كنعان هذه المجموعة سنة ١٩٩٦ إلى جامعة بير زيت، وتقع حالياً تحت إشراف "اللجنة التأسيسية للتطوير الثقافي والتراثي في جامعة بير زيت". هناك خمسة دفاتر سجّل فيها كنعان بالألمانية ملاحظات بخط اليد دوّنها في فترة ما في الأربعينات عن قطع المجموعة. وبناء على تكليف من اللجنة التأسيسية قام كاتب هذا المقال بترجمة الدفاتر إلى العربية، وصدّر الترجمة بدراسة تحليلية لمحتوياتها. والترجمة تحمل عنوان " مجموعة توفيق كنعان للحجب: مخطوطة بخط توفيق كنعان" (١٩٩٩). وسيصدر هذا العمل في نشرة منفحة عن جامعة بير زيت. أشكر السيدة فيرا تماري، رئيسة اللجنة، التي سمحت لي بالاستفادة في المقال الراهن من بعض المعلومات التي وردت في الدراسة التحليلية. سيشار إلى هذا المصدر بـ: مجموعة الحجب.

(٤٩) وعلى الرغم من العدد القليل للقطع من السنوات ١٩١٠ – ١٩١٢، علماً بأن عدداً كثيراً من القطع في المجموعة غير مؤرخ (مجموعة الحجب).

(٥٠) Canaan 1914, p. VIII.

(٥١) Ibid., p. 83.

(٥٢) يستشهد كنعان بهذا الكتاب مثلاً في صفحتي ١٠٦ – ١٠٧؛ توجد عدة طبعات شعبية من هذا الكتاب، مثلاً: البوني ١٩٨٥؛ أنظر أيضاً: البوني ١٩٥٦.

(٥٣) أنظر: Canaan 1914, pp. 80 - 81، ولوحة ٦: "درة الغواص وكنز الاختصاص في معرفة الخواص"، للشيخ عز الدين الجلدكي.

(٥٤) شاهد كاتب هذا المقال بنفسه الشيخ مصطفى بشر النوباني (اللبن الشرقية) وهو يستخدم كتاب "شمس المعارف" للبوني (البوني ١٩٨٥)، وذلك في أثناء ممارسته لمهنته.

(٥٥) عن المجموعة، أنظر: هيلميكة ١٩٩٨، ص ٢٧ - ٣٤؛ أنظر أيضاً: الحاشية ٤٨.

(٥٦) منطورة ١٩٩٨ب: ص٩؛ تقول Yasma Canaan 1981, p. 150 إنه كان يطلب أيضاً "نسخاً" (replicas) من الحجب.

(٥٧) منطورة ١٩٩٨أ: تشير منطورة إلى تاجر بالتحديد من دون أن تذكره بالاسم، وفي الإمكان الاستنتاج من وصف موقع متجره أنه التاجر الأرمني أوهان.

(٥٨) السنة بحسب Olpp 1932, p. 59، ويتفق هذا مع تقرير جرجي زيدان، الذي زار القدس سنة ١٩١٣ (أنظر الحاشية التالية).

(٥٩) عن هذا المكتب أنظر: العسلي ١٩٩٤، ص ٢٣٣ - ٢٣٤، الذي يستشهد بمقال لجرجي زيدان نشر في "الهلال" سنة ١٩١٣. يعطي زيدان معلومات إضافية عن المكتب، بينها أنه كانت له معامل للأبحاث أهمها معمل الملاريا برئاسة الأستاذ مولينز، والمعمل الهيجيني بإدارة د. برين، ومعمل الكلب والمصل بإدارة د. بيهان، والمعمل البكتريولوجي بإدارة د. كولدبرغ. ويقول زيدان: "هناك فروع طبية مختلفة أهمها فرع الملاريا بإدارة الدكتور كنعان."

(٦٠) عبد الله ١٩٩٨ب: ص١٩؛ منطورة، النسخة الأصلية.

(٦١) Schwake 1983, p. 341. مما يؤكد وجود كنعان في عوجا الحفير سنة ١٩١٤ أنه اقتنى في هذا التاريخ أربعة حجب من أحد شيوخ بدو العزازمة (مجموعة الحجب).

(٦٢) غزة وشيخ نوران بحسب تواريخ مجموعة الحجب.

(٦٣) مجموعة الحجب. والقطع التي جُمعت بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ بلغ عددها ٢٤٠ قطعة (نحو ١٠٠ من حلب!)، والبعض منها اقتناه كنعان في أثناء وجوده في القدس سنة ١٩١٤. وتذكر يسمى كنعان تنقله بين المدن على النحو التالي: بئر السبع، عوجا الحفير، بيت حانون، القدس، نابلس، دمشق، وأخيراً حلب. بينما تذكر ليلى منطورة تلك المدن على نحو آخر: دمشق، الناصرة، معان، حلب، نابلس. وبالعودة إلى مجموعة الحجب، بحسب تواريخ الاقتناء، يتضح أنه ربما تنقل بين المدن والقرى على النحو التالي: الناصرة، نابلس، عوجا الحفير (١٩١٤)، أريحا، البيرة، القدس وقرى مجاورة، الخليل، بيت لحم، بئر السبع، شيخ نوران، عمان (١٩١٦)، طبرية، القدس وقرى مجاورة، حلب (١٩١٧)، الناصرة، نابلس، القدس وقرى مجاورة، الخليل، غزة (١٩١٨). ومن الواضح أن كنعان كان يتردد باستمرار على القدس في أثناء أعوام الحرب، إلاّ إذا كانت زوجته مارغوت تقتني القطع له.

وتقول ابنته يسمى أنه اشتغل بعمل المختبرات شهرين أيضاً مع الجيش البريطاني (Yasma Canaan 1981, p. 150).

(٦٤) Ben - Arieh 1986, p. 136. لا يذكر هذا المؤلف أينسلر أو كنعان، على الرغم من أنه يتتبع تاريخ المستشفى حتى سنة ١٩٤٨، ويكتفي بالعبارة المقتضبة: "استمر في الوجود في إبان فترة الانتداب."

(٦٥) Jesushilfe.

(٦٦) عن معالجته للمرضى في مستشفى الجذام توجد مخطوطة له عن "الجذام" اطلع عليها شفاكه (Schwake 1983, p. 625) عند الأستاذ فولفغانغ باكس (القدس)، وهي على الأغلب المقال المذكور في الحاشية ٦٨. يذكر العودات ١٩٧١، ص ٣٢ سنة ١٩٤٧ خطأ كتاريخ لانتهاء عمله في مستشفى الجذام.

(٦٧) Canaan 1925, p. 1242.

(٦٨) Canaan 1926, p.46.

(٦٩) راجع غميلين النص الألماني لكتاب "معتقدات الجن"، الذي صدر سنة ١٩٢٩.

(٧٠) يذكر شفاكه أن غميلين "كان يؤيد بصورة مكشوفة الحزب الاشتراكي القومي [النازي...] وتحفّظ أمام زملائه اليهود من معاداة السامية عند النازيين"، وذلك بالاعتماد على رواية لجار وزميل لغميلين، هو الأستاذ إيمانويل بروبر (Schwake 1983, p. 685, n. 4). ويلاحظ أن هذا "الجار والزميل"، وبصفته هذه، سيفشي لشفاكه بمعلومة غريبة عن كنعان (أنظر أدناه الحاشية ٨٢). وجوهر المعلومتين وطبيعة نقلهما من قبل بروبر، يجعلان المرء يشك في صدقيتهما، الاثنتين معاً.

(٧١) Olpp 1932, p. 59. ذكر هذه الرحلة أيضاً Tannous 1988, p. 138. لا توجد معلومات واضحة أو أكيدة عما يذكره حداد ١٩٦٤، ص ١٧، من فترة دراسة للتخصص أمضاها كنعان في إنكلترا.

(٧٢) في النص الإنكليزي الأصلي لمنطورة: Arab Women's Council، وفي الترجمة العربية (منطورة ١٩٩٨ب، ص ١٢): "مجلس النساء العربيات".

(٧٣) الخليلي ١٩٧٧، ص ٧٧، ٧٩.

(٧٤) أنظر: زعيتر ١٩٩٢، ص ٤٧٢.

(٧٥) عن هذا المؤتمر، أنظر: الخليلي ١٩٩٧، ص ٨٠.

(٧٦) العودات ١٩٧١، ص ٣٢، وتبعه في ذلك آخرون. تصحح المعلومة عند العودات من أن كنعان وزوجته وشقيقته قد سجنوا "وبعد شهور ثلاثة أُفرج عنهم."

(٧٧) Canaan 1925, p. 1242.

(٧٨) Canaan 1949 p. 33.

(٧٩) أنظر: Von Rabenau 1962, p. 3.

(٨٠) يقتبس العودات مقاطع نشرت في *Daily Mail* بتاريخ ٢٧ أيار/مايو ١٩٣٦ وفي *Palestine and Transjordan* بتاريخ ١٣ حزيران/يونيو ١٩٣٦. وهذه تتطابق مع مقاطع من كتاب "قضية عرب فلسطين"، الذي يحمل تاريخ ٢ تموز/يوليو ١٩٣٦. لهذا نفترض أن "قضية عرب فلسطين" هو إعادة نشر لأي من المقالين المذكورين. وتجدر الإشارة إلى أن الكتيب صدر أولاً مطبوعاً على الآلة الكاتبة، وهو الأمر الذي يشير إليه كنعان بنفسه في المقدمة، والكتاب مؤرخ على النحو التالي: "الدكتور توفيق كنعان. القدس، في ٢ تموز [يوليو]، الموافق لليوم الخامس والسبعين من الإضراب العام."

(٨١) زعيتر ١٩٩٢، ص ١٤٩.

(٨٢) ذكر ذلك شفاكه بالاستناد إلى شهادة شفهية للدكتور إيمانويل بروبر (القدس)، وهو "جار يهودي وزميل جيد لكنعان"، الذي أخبر شفاكه عن "دعم كنعان المكشوف بصورة واضحة لتجارة العرب بالسلاح" (Schwake 1983, p. 323). أنظر الحاشية ٧٠.

(٨٣) أنظر: خوري ١٩٨٦، ص ١١٨؛ تصدر مرة كل شهرين.

(٨٤) كنعان والدجاني ١٩٥٠، ص ٣ – ٥.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٨ – ٢١.

(٨٦) العارف ١٩٥٦، ص ١٤٥ – ١٤٨.

(٨٧) منطورة ١٩٩٨أ: "قبل آذار [مارس]".

(٨٨) منطورة ١٩٩٨أ. تقول يسمى إن البيت أصيب عند اندلاع القتال بين العرب واليهود في سنة ١٩٤٨. أنظر: Yasma Canaan 1981, p. 149.

(٨٩) Yasma Canaan 1981, p. 148. عن ذلك، أنظر أيضاً: Tleil 2001, p. 55.

(٩٠) أخبرت ليلى منطورة كاتب هذا المقال سنة ١٩٩٥ أنها رأت بعض كتب أبيها في مكتبة الجامعة العبرية.

(٩١) التل ١٩٥٩، ص ١٤١.

(٩٢) Tannous 1988, p. 580.

(٩٣) عن هذه المستشفيات، أنظر: كنعان والدجاني ١٩٥٠، ص ١٧ – ٢٠.

(٩٤) Tannous 1988, p. 580.

(٩٥) أنظر في شأن هذا الموضوع: كنعان ١٩٥٠، ص ٣٤ – ٤٣؛ أنظر أيضاً: كنعان والدجاني ١٩٥٠، ص ١٨ – ١٩؛ بالنسبة إلى مستشفى الهوسبيس، أنظر أيضاً: Yasma Canaan 1981, p. 148.

(٩٦) Canaan 1964؛ منطورة ١٩٩٨ب، ص ١٤.

(٩٧) أنظر: Tannous 1988, p. 95.

(٩٨) منطورة ١٩٩٨أ. لا تذكر منطورة متى حدث ذلك، غير أن اسم أبو جلدة أخذ يتردد على ألسنة الناس مع بداية الثورة سنة ١٩٣٦. أنظر: زعيتر ١٩٩٢، ص ٥٩.

(٩٩) السكاكيني ١٩٥٥، ص ١٥٢.

(١٠٠) العقاد ١٩٤٦، ص ١٠٥.

(١٠١) عن هيرمان شنلر أنظر: حداد ١٩٩٤، ص ٣٨٧ – ٣٨٨.

(١٠٢) كانت ليديا أينسلر مهتمة بالتراث الفلسطيني، وكتبت في هذا المجال عدداً من المقالات نُشر في مجلات متخصصة. كما كانت مثل كنعان تجمع قطعاً تراثية بينها الحجب بالمعنى الواسع للكلمة. وما جمعته قبل سنة ١٩١٤ وصل إلى "متحف الصحة الألماني" في دريسدن، ونقلت هذه المجموعة سنة ١٩٢٩ إلى "متاحف علم الحيوان والإثنوغرافيا" (حالياً متحف الدولة للإثنوغرافيا). ومما تجدر الإشارة إليه أن ليديا أينسلر كانت تهدي لكنعان قطعاً سنة ١٩٤٣، أي قبل سنة من وفاتها وهي في الثامنة والثمانين من العمر (مجموعة الحجب).

(١٠٣) المعلومات عن هؤلاء الأشخاص من: مجموعة الحجب.

(١٠٤) الأشهب ١٩٩٩، ص ٨ – ٩.

(١٠٥) Probst.

(١٠٦) Hertzberg and Friedrich 1990, pp. 69-76.

(١٠٧) المعلومات عن تيخو من: Schwake 1983, pp. 650 - 651.

(١٠٨) بالنسبة إلى المعلومات عن حداد أنظر: العقاد ١٩٤٦، ص ٣٠.

(١٠٩) أنظر: العقاد ١٩٤٦، ص ٣١.

(١١٠) مجموعة الحجب. توجد في مقالات كنعان وكتبه، وخصوصاً "المعتقدات الغيبية..."، إشارات كثيرة إلى الشيوخ لم تجمع هنا.

(١١١) أنظر: Malsch 1998, p. 231. وصورة لكنعان حاملاً لهذه الأوسمة عند عبد الله ١٩٩٨أ: ص ii، مع وسام "الصليب الأبيض"، الذي قلده إمبراطور ألمانيا لأبيه بشارة سنة ١٨٩٨.

المراجع

بالعربية

أبو حمد، عرفان (١٩٧٩). "أعلام من أرض السلام". [حيفا]: جامعة حيفا، شركة الأبحاث العلمية والعملية.

الأشهب، عودة (١٩٩٩). "تذكرات عودة الأشهب". صفحات من الذاكرة الفلسطينية (٨). بير زيت: جامعة بير زيت، مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني.

البوني، أحمد بن علي (١٩٥٦). "منبع أصول الحكمة". [القاهرة].

ـــــــ (١٩٨٥). "شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف". بيروت: المكتبة الشعبية.

التل، عبد الله (١٩٥٩). "كارثة فلسطين: مذكرات عبد الله التل قائد معركة القدس". طبعة ١٩٩٩.

حداد، داود (١٩٦٤). "الدكتور توفيق كنعان الطبيب (الإنسان)". "كنيستك"، المجلد ١١، العدد ١ (كانون الثاني [يناير])، ص ١٧ ـ ١٨.

ـــــــ (١٩٩٤). "ذكريات وأحداث تاريخية". القدس: مطبعة أمرزيان للتصوير والطباعة.

حديدي، صبحي (١٩٩٧). "توفيق كنعان". "القدس"، ١٣/٣/١٩٩٧.

حمادة، محمد عمر (١٩٩٨). "أعلام فلسطين"، الجزء الثاني. دمشق: دار قتيبة، ص ٥١ ـ ٥٤.

الخليلي، غازي (١٩٧٧). "المرأة الفلسطينية والثورة: دراسة اجتماعية ميدانية تحليلية". بيروت.

خوري، غادة (إعداد)، (١٩٩٢). "خطب الاحتفالات السنوية للمدرسة الكلية السورية الإنجيلية. الجامعة الأميركية في بيروت ـ حالياً ١٨٧٠ ـ ١٩٢٠". بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت.

خوري، يوسف ق. (إعداد)، (١٩٨٦). "الصحافة العربية في فلسطين ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين.

الزركلي، خير الدين (١٩٨٠). "قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين". الجزء الثاني، الطبعة الخامسة. بيروت: دار العلم للملايين.

زعيتر، أكرم (١٩٩٢). "يوميات أكرم زعيتر: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩"، الطبعة الثانية. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

سحاب، فيكتور (١٩٩٤). "د. توفيق كنعان وأهم كتاباته". "الجنى" ٢ (كانون الأول [ديسمبر])، ص ٤ ـ ٨.

سرحان، نمر (١٩٧٢). "دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني". "شؤون فلسطينية" ١٦، ص ١٢٨ ـ ١٣٦.

ـــــــ (١٩٨٨). "تصدير ومقدمة الأعمال الفلكلورية الكاملة للدكتور توفيق كنعان". في "الأعمال الفولكلورية الفلسطينية للدكتور توفيق كنعان ١٨٨٢ ـ ١٩٦٤". الجزء الأول، ص ٣ ـ ٢٠.

السكاكيني، خليل (١٩٥٥). "كذا أنا يا دنيا: يوميات". القدس: المطبعة التجارية.

سليمان، جابر (١٩٩٤). "[د. توفيق كنعان:] حياته وبيئته العلمية". "الجنى" ٢ (كانون الأول [ديسمبر])، ص ٢ ـ ٤.

طه، حمدان (١٩٩٨). "د. توفيق كنعان وعصره"، ص ٩ ـ ١٧ في: توفيق كنعان، "الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين". رام الله: منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية بالتعاون مع دار الناشر.

العارف، عارف (١٩٥٦). "نكبة فلسطين والفردوس المفقود ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢". الجزء الأول. دار الهدى.

عبد الله، وسام (تحرير)، (١٩٩٨أ). "يا كافي يا شافي... مجموعة توفيق كنعان للحجب الفلسطينية: معرض من ٣٠ تشرين الأول ١٩٩٨ إلى ٢٥ شباط ١٩٩٩، جامعة بير زيت". بير زيت.

ـــــــ (١٩٩٨ب). "توفيق كنعان: سيرة حياة"، ص ١٧ ـ ٢٦ في: "يا كافي يا شافي... مجموعة توفيق كنعان للحجب الفلسطينية: معرض من ٣٠ تشرين الأول ١٩٩٨ إلى ٢٥ شباط ١٩٩٩، جامعة بير زيت". بير زيت.

العسلي، كامل جميل (١٩٩٤). "مقدمة في تاريخ الطب في القدس منذ أقدم الأزمنة حتى سنة ١٩١٨م". عمان: الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي.

[العقاد، أحمد خليل]، [١٩٤٦]. "من هو لرجال فلسطين سنة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦". يافا: "مكتب الصحافة والنشر".

العودات، يعقوب (البدوي الملثم)، (١٩٧١). "توفيق كنعان ـ قاسم الريماوي ـ صبحي طاهر الدجاني". "الأديب"، سبتمبر [أيلول] ١٩٧١، الجزء ٩ ـ السنة ٣٠، ص ٣٢ ـ ٣٦.

ـــــــ (١٩٩٢). "من أعلام الفكر والأدب في فلسطين". القدس: دار الإسراء.

القش، إدوار (١٩٩٤). " مكانة د. توفيق كنعان العلمية ومنهجه في دراسة ثقافة الشعب الفلسطيني". "الجنى" ٢ (كانون الأول [ديسمبر])، ص ٨ ـ ١٠.

كنعان، توفيق (١٩٠٥). "المعالجة الحديثة وتقدم الطب". "المقتطف" ٣٠، ص ٧٩٣ ـ ٧٩٥.

ـــــــ [١٩٥٠]. "مستشفى الحكومة (الهوسبيس)"، ص ٣٤ ـ ٤٣ في: "الجمعية الطبية العربية الفلسطينية: تقرير عام عن جهود الجمعية وجهادها ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠". إعداد توفيق كنعان ومحمود طاهر الدجاني. القدس: مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية.

ـــــــ (١٩٩٨). "الأولياء والمزارات الإسلامية في فلسطين"، ترجمة نمر سرحان وتحرير حمدان طه. رام الله: منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية بالتعاون مع دار الناشر.

كنعان، توفيق ومحمود طاهر الدجاني (إعداد)، (١٩٥٠). "الجمعية الطبية العربية الفلسطينية: تقرير عام عن جهود الجمعية وجهادها ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠". القدس: الجمعية الطبية العربية الفلسطينية.

منطورة، ليلى (١٩٩٨أ). "رسالة بتاريخ ١٩٩٨/٦/٢٠". اللجنة التأسيسية للتطوير الثقافي والتراثي في جامعة بير زيت.

ـــــــ (١٩٩٨ب). "الأب، الصديق، والملهم". ص ٩ ـ ١٥ في: "يا كافي يا شافي... مجموعة توفيق كنعان للحجب الفلسطينية: معرض من ٣٠ تشرين الأول ١٩٩٨ إلى ٢٥ شباط ١٩٩٩، جامعة بير زيت"، تحرير وسام عبد الله. بير زيت.

الموسوعة الفلسطينية (١٩٨٤). القسم العام، المجلد الأول (أ ـ ث)"، الطبعة الأولى. ١٩٨٤.

بالأجنبية

Ben - Arieh, Yehoshua (1986). *Jerusalem in the 19th Century: Emergence of the New City.* Jerusalem: Yad Izhak Ben-Zvi.

Canaan, Badra (1965a). "Meramiyeh." *Im Lande der Bibel Neue Folge der Nachrichten aus dem Morgenland* 1965/1, pp. 23 - 24.

_____ (1965b). "Gott genügt als Helfer." *Im Lande der Bibel Neue Folge der Nachrichten aus dem Morgenland* 1965/3, pp. 14 - 19.

Canaan, T. (1909). "Der Ackerbau in Palästina." *Globus* 96, pp. 272 - 286, 290 - 293.

_____ (1911). "Cerebrospinal - Meningitis in Jerusalem." *Al-Kulliyeh* 2, pp. 206 - 215.

_____ (1912). "Demons as Aetiological Factor in Popular Medicine." *Al-Kulliyeh* 3/5 (March), pp. 150 - 154; 3/6 (April), pp. 183 - 190.

_____ (1913). "Der Kalender des Palästinensischen Fellachen." *Zeitschrift des Deutschen Palästinaverein* 36, pp. 266 - 300.

_____ (1914). *Aberglaube und Volksmedizin im Lande der Bibel.* Abhandlungen des Hamburgischen Kolonialinstituts, Band XX. Hamburg: L. Friederichsen & Co.

_____ (1920/21). "Haunted Springs and Water Demons in Palestine." *The Journal of the Palestine Oriental Society* 1, pp. 153 - 170.

_____ (1923). "Tasit er-Radjfeh (Fear Cup)." *The Journal of the Palestine Oriental Society* 3, pp. 122-131.

_____ (1925). "Die sanitären Einrichtungen Palästinas." *Deutsche Medizinische Wochenschrift* 51, p. 1242.

_____ (1926). "Der Ausatz in Palästina." *Evangelisches Gemeindeblatt für Palästina* 2, pp. 45 - 46.

_____ (1927). *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine.* Luzac's Oriental Religious Series, vol. V. London: Luzac.

_____ (1928). "Plant-lore in Palestinian Superstition." *The Journal of the Palestine Oriental Society* 8, pp. 129 - 168.

_____ (1929). *Dämonenglaube im Lande der Bible.* Leipzig: Hinrichs.

_____ (1963a). *The Palestine Arab Cause.* Jerusalem: The Modern Press.

_____ (1963b). *Conflict in the Land of Peace.* Jerusalem: Syrian Orphanage Press.

_____ (1949) "Is the Death Rate among Refugees Normal?" *Al-Kulliyeh* 24/7 (Autumn), p. 33.

_____ (1954). "Katherina and Bechara." *The Lutheran,* p. 81.

_____ (1961). "Das Elternhaus." *Im Lande der Bibel Neue Folge der Nachrichten aus dem Morgenland* 7, Heft 1, pp. 14 - 18.

_____ (1964). "Der Mord in Sitten und Gebräuchen bei den Arabern Jordaniens." *Zeitschrift des Deutschen Palästinaverein* 80, pp. 85 - 98.

Canaan, Yasma (1981). "Some Biographical Notes on Dr. T. Canaan." *Society and Heritage* 15, pp. 147 - 152.

Hertzberg, Hans Wilhelm and Friedrich Johannes (1990). *Jerusalem. Geschichte einer Gemeinde.* Jerusalem: 1990 (= Kassel: 1965).

Malsch, Carl (1998). "Probst and der Erlöserkirche 1960 - 1965. Besondere Aufgaben und Ergebnisse, pp. 229-245 in *Dem Erlöser der Welt. Festschrift zum hundertjährigen Jubiläum der Einweihung der evangelischen Erlöserkirche in Jerusalem,* eds. K. -H. Ronecker, J. Nieper, and Th. Neubert - Preine. Leipzig: Evangelische Verlagsanstalt.

Nashef, K., ed. (1998). *Ya kafi, ya shafi... The Tawfik Canaan Collection of Palestinian Amulets: An Exhibition, October 30, 1998-February 25, 1999, Birzeit University.* Birzeit University.

Olpp, G. (1932). *Hervorragende Tropenärzte in Wort und Bild.* Müchen: Verlag der ärzlichen Rundschau Otto Gmelin.

Rabenau, Konrad von (1962). "Die Schriften von Dr. med. Taufik Canaan." *Zeitschrift des Deutschen Palästinaverein* 79, pp. 1 - 7.

Schwake, N. (1983). *Die Entwicklung des Krankenhauswesens der Stadt Jerusalem vom Ende des 18. bis zum Beginn des 20 (I) Jahrhunderts.* Teil 1 und 2. Dissertation, Rheinisch - Westfälische Technische Hochschule Aachen. Herzogenrath: Verlag Murken - Altrogge und Autor.

Tannous, Izzat (1988). *The Palestinians: A Detailed Documented Eyewitness History of Palestine under British Mandate.* New York: I.G.T. Company.

Tleil, John N. (2001). *I am Jerusalem.* Jerusalem.